سبع ظواهر تفتك بالمجتمع

Sept manifestations attaguent la sociètè

١ . التسول

٢ . التشرّد

٣ . التصعلك

٤ . الطلاق

٥ . السُّكر والخَدَر

٦ . الدعارة والعهر

٧ . البيروقراطية

تأليف

عمر الشعبي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى كل من يخفق قلبه بالخير والمحبة، ويرنو إلى الصلاح والإصلاح.. ويحرص على تحقيق الأمل بالعمل.. وصولاً بالمجتمع والأمة إلى معارج الرفعة والمجد والازدهار وبالإنسانية جمعاء إلى آفاق التقدم والرقي والسلام.. أهدي هذا الكتاب

تعريف موجز بالمؤلف

عمر بن أحمد الشعبي، ولد في كفر سوسة (ضاحية جميلة) من ضواحي دمشق الفيحاء سنة ١٩٣٨م، نظم الشعر، وأحب الموسيقا منذ الصغر، ومازال ينظم، ويكتب في موضوعات مختلفة، ويهوى الموسيقا تذوقاً وعزفاً وتلحيناً.. والغناء والفن عامة، ويخلو إلى عوده أحياناً ويترنم... يُدرّس العربية الآن بالمغرب الشقيق، ويقرأ الفرنسية، وعنده إلمام بالعبرية، له ديوان شعر مطبوع بالمغرب تحت عنوان (شروق وغروب ونبضات قلب) وينوي إن شاء الله . إعادة طبعه، عما قريب في الوطن، وطبع أعمال أدبية أخرى... متزوج وله أولاد[١].

[١] ـ يحسن الرجوع إلى تعريف أكثر إفادة وتفصيلاً، في مؤخرة ديوانه المذكور (شروق وغروب).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه محاولة متواضعة، لتصوير وتشخيص بعض الظواهر الاجتماعية المرضية، تكاد تكون خطرات قلم ذاتية، لا تعمد إلى الدراسة الأكاديمية، والاستقصاء والمقارنة... بل هي أقرب على البساطة والعفوية، وتسجيل تداعيات الأفكار.. وقد سلكت، في كتابتها، منهجاً مختصراً، يتلخص في الخطوات التالية:

١ . وصف الظاهرة، ومحاولة فرزها وتحديدها في جميع مظاهرها وصورها ومستوياتها.

٢ . تعليلها وبيان أسبابها وعواملها المباشرة والظاهرة.. وغير المباشرة والخفية.

٣ . نتائجها وأضرارها وأخطارها.

٤ . العلاج المقترح، والحل المرئي لها.

والله (تعالى) ولي التوفيق، وله الحمد أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وآله وصحبه والتابعين وجميع الأنبياء والمرسلين.

المؤلف

التسوّل
La mendicitè

وصف وفرز:

بالإضافة إلى معنى (سأل) المعروف بمعنى طلب، أو استفسر.. ونحو ذلك، نجد في المعجم كذلك:

سَوِلَ، يَسْوَل، سَوَلاً: كان في بطنه استرخاء تحت السُّرَّة، فهو أسْوَل، وهي سَوْلاء، والجمع سُوْل وتسوَّل البطن: استرخى.

لكن التسوّل مصطلح عرفي يعني طلب الصدقة واستدرار النفقة من الآخرين، والسعي وراء ذلك، واتخاذه مهنة، وسلوك أساليب وحيل وفنون في سبيل ذلك.

هذه الظاهرة الاجتماعية التي قلما يخلو منها مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة، وقد تتخذ في . بعض المجتمعات . مظاهر وصوراً تختلف عنها في مجتمعات أخرى، وقد تكون في هذا المجتمع، أو ذلك، أقوى وأظهر منها في سواه، حتى ليغدو، أو يكاد يغدو مرضاً اجتماعياً خطيراً، ينخر جسم المجتمع، ويهدد سلامه وأمنه.

ففي إسبانيا مثلاً، قلما نشاهد متسولاً يستجدي المارة مباشرة، أو يجلس عارضاً بؤسه وفقره أو عاهته، بل في الغالب الأعم، يلجأ إلى وسيلة أو حيلة ذكية للوصول إلى بغيته، فقد يتقدم إلى المارة من الناس، ممن يتوسم فيهم اليسر والغنى، متلطفاً متأنياً يعرض حاجته ويطلب المساعدة.. وقد يدّعي أنه فقد نقوده. أو ضيع تذكرة سفره أو تعرّض لحادثة سلْب أو نشل..

ومنهم من يتخذ آلة موسيقية أو إيقاعية يتسول بالعزف عليها في أحد الشوارع أو الأسواق. وغيرها من المظانّ المزدحمة.. وبعضهم يأتي بامرأة وأولاد، مستعارين، ويكتب على لوحة، أو ورقة، أو على الأرض، أنهم أبناء سبيل أو انقطعت بهم السبل استدراراً للشفقة واستثارة للرحمة، وابتزازاً للمال..

ومنهم من يعرض خدماته المختلفة، على السياح والأجانب.. ويلصقون بهم.. فإذا ما أنسوا إلى دماثة ولطف السائح أو المار، وعرفوا منه الخجل والاستحياء، ألحفوا في السؤال، وألحوا في الاستعطاء والاستجداء.

وشبه ذلك نجده في فرنسا، ولاسيما في العاصمة باريس، وأما في مرسيليا (مرساي) Marseille فإن ظاهرة التسول تتخذ أشكالاً ومظاهر أكثر حدة وأخطر، لأنها بؤرة تجمع مواطنين أجانب شذاذ آفاق من جميع الجهات والبلدان تقريباً: من عرب وأفارقة، وهنود، وباكستانيين، وأوروبيين وأتراك، وإيرانيين، وغيرهم..

فقد شاهدت فيها كثيراً من المتسولين، بصور مباشرة وغير مباشرة، كالمنجمين والدلالين والمتسكعين، وأصحاب الحيل والنصابين والنشالين..

أما في المغرب، فإن التسول يأخذ صورة مرض خطير، بل هو شيء عجب، يحير المرء في تحديده، وتصويره، وتعليله، لأنه خليط من الأعمال والممارسات التي تختلط، وتختلف دوافعها وعللها وأسبابها أيضاً، هنا تمتزج المشاعر الدينية مع الأفكار والتيارات الفلسفية، ويتخذ التسول ألواناً من الأنشطة والصور والمظاهر، ويمكن القول إن المغرب أحفل البلدان العربية بالمتسولين، بالإضافة إلى المتشردين وغيرهم.

ففي كل المدن بالمغرب، ولاسيما الكبرى، ترى جيشاً عرمرماً من المتسولين والمتسولات من جميع الأعمار، يتهافتون على المارة يسألون الناس إلحافاً، وكثير منهم قد اتخذ له مراكز ثابتة، وافترش الأرض، يمد يده، ويطلق لسانه بالطلب، ويستخدم دعاء أو كلمات يكررها، أو يتلو شيئاً من القرآن، وترى كثيراً من العجائز، والمقعدين والمتواكلين والعاطلين قد احتلوا مداخل المساجد ومخارجها يسألون المصلين داخلين وخارجين.

وقلما تجد أثراً للمتعففين ذوي الشعور بالكرامة والحياء، الذين تصفهم الآية الكريمة بأنهم (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً)[١].

ففي الدار البيضاء مثلاً إحدى المدن الكبرى، وباريس المغرب . كما يقال عنها . تتعجب من كثرة المتسولين، بلْهَ المتشردين وغيرهم تطالعهم وتصادفهم بكل سبيل وفي كثير من الساحات والعرصات والأزقة والمنعطفات.. ولاسيما في الشهر الفضيل (رمضان)، حتى لكأنه موسم المتسولين!.

ومنهم . وأسفاه . من هو . فعلاً . في حالة الممضّ في الألم والفاقة الشديدة أو العجز والشلل، والأمراض المزمنة العُضال.. فتراهم يفترشون الأرض، ويلتحفون السماء! أو يلفّون أجسامهم بأسمال بالية، ويضعون تحتهم خرقة أو جلدة أو كاغداً.. ويمضون هكذا الليالي الباردة، وأيام الشتاء القارسة.. وما أقلَّ من ينتبه إليهم، أو يحفل بهم! فالناس سائرون دوماً إلى غاياتهم لا يلوون على أمثال هؤلاء الذين انتشروا في بعض الشوارع والأزقة، كأكوام القمامة! والناس مشغولون عنهم دوماً بمعاشهم ومصالحهم.

وأنى لهم أن يلتفتوا إلى مثل هذه الأمور التوافه!! كما يقول لسان حالهم، وأفضلهم، وأحسنهم من يتذكر . حين يرى واحداً من هؤلاء . أن يدسَّ يده في جيبه، ويخرج منه دريهمات . أستغفر الله . بل بضعة أجزاء من الرويّلات يرمي بها إليه.. هذا غاية ما يصل إليه الجود والإحسان، والبر الإكرام عند أكثر هؤلاء الناس من المارة!!

ويظنون أنهم قاموا بما يفرضه عليهم الإسلام من زكاة وصدقة، وتضامن وتكافل، وبر وإحسان تجاه إخوانهم الفقراء المساكين والسائلين وأبناء السبيل.

ومن هؤلاء المحسنين الأفاضل من يكتفي من البر والإحسان والعطاء، بموقف الحياد من هؤلاء المساكين والسائلين والمحرومين والأيتام، فلا يقهرهم ولا ينهرهم، ولا يعطيهم كذلك وهو يحدّث بنعمة الله تعالى عليه.

---

[١] ـ البقرة آية (٢٧٣).

وكأنه، على هذا النحو، فهم الآيات الكريمة (فأمّا اليتيم فلا تقهر، وأمّا السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث)[1].

ومن أولئك الفقراء المتسولين من عرته لوثة الحمق أو الجنون أو العته أو غيره من العاهات العقلية أو النفسية، فلم يعد يقدر على التمييز، في نفسه، بين الضرر والنفع، بين المسرة والعذاب بين الحر والبرد، بين الجزع والشبع.

فما أكثر ما رأيت من هؤلاء من يعيش في ظروف لا تستطيع تحملها حتى الأوابد من الحيوانات والوحوش!.

ففي ليلة ليلاء شديدة القر والزمهرير، رأيت . وأنا عائد من سهرة لدى أحد الأصدقاء . امرأة مستلقية على الرصيف ورأسها إلى جذع شجرة من شجراته، ليس تحتها أو فوقها أو حولها دريئة تدرأ عنها نهشارة البرد الذي يكاد يجمد الأنفاس، ويتغلغل إلى أعماق العظام! سبحان الله! حتى الكلب الشريد كان يتحرك، في تلك الليلة، باحثاً عن مخبأ من البرد، ويحاول، بالحركة، أن يدفّئ نفسه شيئاً!.

ولست أفاخر أو أرائي، إذا قلت: إني قد رثيت لتلك المرأة، وتألمت، وحرت كيف أساعدها وأخفف عنها محنتها، ولم أرض كل الرضا إذ أعطيتها غطاء (بطانية) من أغطيتي طرحته عليها، مع بعض النقود.

ولحسن الحظ، كانت تلك المرأة المتسولة، شبه الحمقى ظاهرة فريدة، بتلك المدينة، أما في المدن الأخرى كآسفي والجديدة والرباط والدار البيضاء ومراكش.. فما أعم تلك الظاهرة، وأكثرها انتشاراً.

ففي الجديدة، مثلاً، ترى وأنت عائد من سينما، أو مقهى، أو زيارة ليلاً العشرات من المتسولين والمساكين والمتشردين.. يقبعون هنا وهناك، على رصيف الشارع الرئيسي متلففين. والأغطية المهترئة القذرة! من نساء ورجال وفتيان، وأنياب البرد تعضّهم، والبلل والمطر والرطوبة تأكل أطرافهم، وتغلف كيانهم، وفي مدينة مرّاكش الحمراء! ترى من المتسولين والفقراء والبائسين العجب العُجاب!

تعال معي إلى ساحة جامع الفنا! وانظر إلى هؤلاء الشحاذين والشحاذات، وطوائف المشعوذين والمنجمين والسحرة أو مردة السر والألاعيب والحيل.. فهنا المتسولون الطوافون على الحشود من الناس وعلى المارة، وعلى أصحاب الدكاكين والحوانيت والباعة المتجولين، والمتسولون القاعدون على أبواب الجوامع، وقوارع الطرق، والأرصفة.. ففي يوم الجمعة مثلاً ترى جموعاً عدة منهم قد اتخذوا أمكنتهم على طول المماشي المؤدية إلى الجوامع، منهم الفقير المحتاج، والبائس المسكين، والمقعد الضعيف والمريض العاجز.. وفيهم كذلك القوي المتمسكن والقادر المتمارض، والصحيح المتظاهر بالعجز.. وذو المال المتبدي بالفاقة والحاجة..

[1] ـ الضحى آية (٩ ـ ١١).

ولعل أشد المناظر إيلاماً وأبلغها تأثيراً وهزاً في النفس وتفطيراً للفؤاد تلك الأمهات البائسات اللائي يحملن أطفالهن و يطفن بهم في الشوارع والأسواق أو يعرضنهم على المارة طلباً لثمن الخبز والإدام والتماساً للعون والمساعدة على مصائب الدهر وحوادث الزمان!.

ومن ألوان التسول غير المباشر، تلك المظاهر والصور المختلفة التي يلجأ إليها بعض المتسولين فمنهم الجماعة التي تعلمت شيئاً من النقر الإيقاعي على بعض الدفوف، و(البنادير) فجاءت إلى الساحة تعرضه على أنه نوع من الفن الشعبي الأصيل!.

ومنهم الجماعة التي أتقنت شيئاً من الحركات والألعاب البهلوانية، فأقبلت تعرضه على أنه نوع من الرقص الفلكلوري العجيب!.

وبعضهم جاء بقرود، أو ثعابين وحيات، فأخذ يلاعبها ويعرضها، ويسأل المشاهدين عليها!

ومنهم من جلس يقص الحكايات والقصص، وقد تحلق حوله جماعة من العامة والعابرين.. حتى إذا حكى لهم شيئاً، وشدهم إليه، مدَّ إليهم يده يطلب الأجر أو الصدقة.

وقد ترى بعضهم قد أتى بآلة موسيقية أو إيقاعية وأخذ يضرب أو يعزف عليها بصورة رديئة متقطعة حتى إذا تجمع حوله بعض الناس، راح يمد يده بالسؤال وطلب العون!.

ومنهم من نثر حوله بعض الكتب الصفراء، والأشياء الغريبة، وكتب بعض الطلاسم والرموز على ورقة.. وراح يدعي للناس أنه يستطيع أن يبرئ الأكمة والأبرص، ويحيي الأموات بقراءة، أو لمسة، أو كتابة حجاب أو حرزٍ أو إطلاق بخور، أو تعليق تميمة...!!

ولا يمكن لأحد أن يحيط بكل تلك الصور المظاهر، التي يتخذها أولئك المستولون بطرائق مباشرة وغير مباشرة، ولا أن يفيها حقها من الوصف والتصوير والغوص إلى دقائقها وأحوالها المختلفة، وحسبنا ما عرضنا من النماذج في هذا المجال، ولنحاول الآن بسط الأسباب والعوامل الكامنة وراء هذه الظاهرة.

الأسباب

أ . البطالة:

لعل البطالة هي السبب الأول والأبرز الذي يتبادر إلى ذهن الباحث، ذلك أن البطالة يمكن اعتبارها أم الرذائل، ومفتاح الشرور والمشكلات، أضف إلى ذلك أنها السبب الرئيسي وراء الظاهرات المرضية في أي مجتمع، وأكثرنا قد رأى بأم عينه ما تجره البطالة من المفاسد والموبقات الخسائر على الأفراد والأسر والمجتمعات، وكلنا يذكر كيف حض الإسلام على العمل والاجتهاد والسعي ونهى عن التبطل واللهو والكسل والتواكل والاعتماد على كسب الآخرين.

فالآيات والأحاديث والأقوال والحكم المأثورة في ذلك أكثر من أن تحصى وتحصر، وحسبنا منها ما يحضرني الآن، عفو الخاطر مما سأسوقه، في هذه العُجالة:

قال تعالى: (وقل اعملوا، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)[١].

---

[١] ـ التوبة آية (١٠٥).

(وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى)[١].

(فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض..)[٢].

(والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات..)[٣].

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ذكر كثيراً من جوامع الكلم في هذا الخصوص، من ذلك مثلاً:

(اليد العليا خير من اليد العليا وابدأ بمن تعول)[٤]، (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير..)[٥]، (لأن يحمل الرجل حبراً فيحتطب به فيبيعه خير له من أن يسأل الناس، أعطوْه أو منعوه)[٦].

وعمر بن الخطاب الفاروق، لا ينسى أحد قولته المشهورة: أرى الرجل فيعجبني، فأسأل: أله حرفة؟ فإن قيل: لا، سقط من عيني!.

وفي كل هذا الذي أوردناه دعوة صريحة إلى العمل، وحث عليه، وترغيب فيه، وتحذير من البطالة والكسل والتهاون والتواكل وزجر وتأنيب لمن يؤثر الضعف على القوة والسؤال على الكسب، والذلة على العزة وتنبيه إلى أنه حتى الجنة ونعيمها لا يمكن لأحد أن ينالهما، إلا بالعمل والجهاد والتعب والنصب، والبذل والعطاء، كيف يستطيع البذل والعطاء من يستجدي ويستعطي الآخرين؟! ولقد قيل: فاقد الشيء لا يعطيه.

وقيل: بالعمل تنال الأمل! وازرع تحصد! ورجلان فاشلان: رجل يفكر ولا يعمل، وآخر يعمل ولا يفكر!.

ولقد ذُكر الفراغ على أنه نوع من البطالة المفسدة للمرء، بالإضافة إلى وفرة المال، وفورة الشباب، وفي قول أبي العتاهية:

إن الشـــباب والفـــراغ والجـــدةْ

مفســـــدة للمـــــرء أي مفســـــدة

ولنذكر هنا أيضاً أن الأمم إنما تقدمت وترقت وسبقت غيرها بالعمل والنظام والسعي وراء هدف جلي سام، ومثل أعلى مرسوم.

وإذا ما أردنا أن نعرّف البطالة فأول ما يتبادر إلى فكرنا أنها عدم توفر فرص العمل للقادرين عليه، أي إنها ظاهرة خارجية مفروضة، لا دخل للشخص العاطل بها.. مع أن المتفحص المتبصر يرى أن هناك أشخاصاً يميلون إلى البطالة والكسل والإهمال بطبعهم، ويؤثرون الراحة والاسترخاء والهمود، على

---

١ ـ النجم آية (٣٨ ـ ٣٩).
٢ ـ آل عمران آية (١٩٥).
٣ ـ العصر آية (١ ـ ٢).
٤ ـ البخاري ومسلم.
٥ ـ مسلم.
٦ ـ متفق عليه.

الحركة والسعي والاجتهاد، وعندهم فلسفتهم أو نظرتهم الخاصة بهم، يعللون بها الأحياء والأشياء ويخلقون بها مسوّغاً لسلوكهم وتصرفاتهم.

وهناك طائفة من الناس فهموا أو أُفهموا الأفكار الدينية فهماً خاطئاً أو معكوساً!. فظنوا أن الدين عبادات وصلوات وأدعية.. ليس إلا!.

ومن هذا الفهم الخاطئ أو المعكوس انطلقت تلك المقولة التي يرددها دائماً أعداء الأديان، ولاسيما الإسلام، ويرددها معهم أناس تبع لهم، إمّعة! لا يعون ولا يفقهون.. يرجعون الكلام كالببغاء، ويقلدون غيرهم كالقرود، وتلك هي: (الدين أفيون الشعوب)!!.

والبطالة ـ كما قيل ـ منها الظاهرة الواضحة ومنها المقنَّعة، ويقصد بالأخيرة تلك البطالة الناجمة عن الكساد العارض لبعض فروع الإنتاج، أو إعلان الإفلاس لدى بعض المؤسسات والشركات، أو توقف أحد قطاعات العمل، بسبب من الأسباب.

والطالة، على هذا، قاسم مشترك بين جميع المجتمعات سواء المتقدمة أو النامية والقديمة أو الحديثة.. ولكنها على درجات متفاوتة، فهي قد تتفاقم في مجتمع دون آخر، وقد تختلف نسبة الأضرار والمشاكل الناتجة عنها أيضاً، من مجتمع لآخر، تبعاً للإجراءات والأدوية التي يتخذها هذا المجتمع أو ذاك لعلاجها أو للتخفيف من شدتها وويلاتها. وتطالعنا الصحف والمجلات المختلفة كل يوم، بأخبار عن البطالة في أنحاء من العالم، وعن الملايين العاطلة أحياناً في هذا البلد أو ذاك، حتى في الدول الصناعية المتقدمة.

لكن نظام الضمان الاجتماعي وغيره من الأنظمة الإنسانية الطيبة، التي نسمع أن كثيراً من هذه الدول قد أخذت بها، وطبقتها، قد خففت كثيراً من آثار الضرر والفساد والعذاب التي تسببها البطالة للعاطلين، وأسست عديداً من الآلام والجراح، وحدّت من انتشار وتفاقم طائفة من الأدواء والمشكلات الاجتماعية..

فعندما يكون للعاطل عن العمل دخل معقول مقبول، يسد بعض حاجاته الضرورية، ويقيم أوده ريثما يجد العمل المناسب ذا الدخل الكافي فستنتفي في نفسه أكثر الدوافع للسؤال والاستجداء، وللانحراف والجنوح أيضاً.. وكم كان حقيقاً بنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أن نكون سباقين إلى مثل تلك الأنظمة الكريمة الرفيعة، وبين أيدينا كتاب رائع عظيم، قال فيه منزله (إن هذا لقرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين..)[١].

وتجد فيه أيضاً: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)[٢].

وجعل الزكاة فرضاً على الأغنياء (للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)[٣].

١ ـ الإسراء آية (٩).
٢ ـ المعارج آية (٢٤).
٣ ـ التوبة آية (٦٠).

ومما لا ريب فيه أن بعض أسباب البطالة نفسي، شخصي، يتعلق بالعاطل نفسه، فقد يأنف هذا الشخص أو ذاك ممارسة عمل أو حرفة سانحة، لاعتقاده أنها لا تليق به، أو لا تشرّفه.. بعد أن يكون وضع، نصب عينيه، مركزاً معيناً، أو مرتبة مرموقة ما، فتراه يروح ويجيء عاطلاً يتربص وينتظر، وأمثاله من هذا القبيل كثر.

وقد يركن بعض الناس إلى الراحة والهدوء والتمطي والاسترخاء، ويعتادون ذلك، فإذا ما عرضت لهم فرصة عمل، ضيّعوها، وأهملوها، ومضوا فيما هم فيه سادرين لاهين، يدافعون الأيام، وغالباً ما يكون هؤلاء ممن يجدون في بيوت آبائهم أو ذويهم القوت والمأوى، أو يلتقطون الفتات والدريهمات من سبل مختلفة..

وعلى النقيض من هؤلاء وأمثالهم، نرى كثيراً من الناس ذوي كرم وإباء وشمم، يعز عليهم أن يتعطلوا أو يكسلوا، وأن يأكلوا من غير كدهم وتعبهم، وأن يعيشوا إلا من عرق جبينهم، وعمل أيديهم ومساعيهم فأوجدوا طائفة من الخدمات الحرة، واستحدثوا جملة من الصناعات والمهن، لم تكن موجودة قبلهم، ولا نغالي إذا قلنا: إن الدافع المباشر، والسبب القريب لهذا الإيجاد والاستحداث، هو الحماس والحاجة إلى العمل، بالتالي إلى الكسب الشريف، والتخلص من البطالة التي تعني الفاقة والعوز، والذّل والحرمان.. وكم من مهنة كانت في بدايتها ضعيفة مرذولة قليلة الرواج، غدت في زمن يسير قوية مرموقة رائجة.

وكم من مهنة تبدو لنا في مظهرها تافهةً أو حقيرةً، درّت على أصحابها والعاملين بها الملايين، وعمرت من ورائها الدور والقصور، وأنفقت على عديد من البشر، ليصبحوا متعلمين مثقفين، ويتبوؤوا مناصب هامة، ومراكز عالية في الدولة.

وفي أسماء وألقاب كثير من الأسر المرموقة الكبيرة، في بلاد الشام وغيرها، دليل قاطع على هذه الظاهرة، وبرهان لا يُرد على أفضال وفضائل المهن والحرف على أهلها وأربابها، نجد مثلاً، من هذه الأسر، أفراداً يتسمون وظائف سامية، أو يحتلون مراتب اجتماعية عالية، ومنهم أصحاب ثروة وغنىً، وأهل وجاهة وصيت وشهرة طيبة، كأسر: الحداد، والحفار، والصباغ، والدباغ، والفرّاء، الجلاد، والكزبري، والجبان، والخياط، والنجار، والمنجّد، والسّمان، والطحان... إلخ.

تصورْ منشأ وبداية تلك الحرف والمهن والأعمال، تجدِ البطالة والفراغ أولاً، ثم الاندفاع والحاجة إلى ملء هذا الفراغ، وشغل تلك البطالة، بعمل مسل ومربح ومطلوب، تلك الحاجة المركبة المختلطة بالحاجة إلى المال، أو ما يعادله من المقادير والقيم.. فالمهمة والتوجه الشخصي الطوعي نحو العمل والحركة والإنتاج والإبداع... ثم صار كل عمل مكملاً للآخر، وكل مهنة متمة للأخرى، استجابة لحاجات الإنسان ومصالحه وما يتصل به من حيوان ونبات وجماد.. وفي ظني، بل اعتقادي أن العاطل عن العمل إذا ما أعمل فكره ورأيه، وشحذ إراداته وطرح جانباً أنفه وقرفه، وتخلى عن كسله ورخاوته وأوهامه، وفك عنه إسار عاداته ومألوفاته وتقاليده.. فإنه سرعان ما يجد لنفسه عملاً ما، أو مهنة تكفيه وتأويه

وتغنيه فإن لم يجد فسيخلق هو لنسفه هذا العمل، أو تلك المهنة، مما تتفتق عنه بنات أفكاره، ودوافع احتياجاته، واحتياجات من حوله، وما سدت، على امرئ، أبواب رزق، إلا فُتّحت أبواب رزق غيرها، وسبل اكتساب أكثر منها.

كل ذلك لا ينفي مسؤولية الدولة والأفراد الأغنياء، والجماعات الميسورة، وأصحاب رؤوس الأموال عن توفير فرص العمل لكل قادر عليه، وامتصاص الأيدي العاملة العاطلة، واستغلال جميع الطاقات والثروات والخبرات المتوفرة المتاحة، لصالح مجموع الشعب والأمة، والقضاء على سائر مظاهر الفقر والبؤس، التعاسة والشقاء، والمسكنة والضعف، وتأهيل وإعانة المعوقين والمقعدين، ولمّ المشردين والمنبوذين والمحرومين، وإيوائهم وإعدادهم للحياة الصالحة الكريمة، وسنّ القوانين الضامنة الكافلة لحماية المجتمع من كل أسباب الهوان والضعف والانحطاط بما يتفق وروح الإسلام الحكيم، وتشريعاته السماوية والسمحاء.

ب . العاهات والعلل، والأمراض المزمنة:

كالعمى، والبكم، والصمم، والقطع، والبتر، والحدب، والقزم، والفطس الشديد، والحروق الكبيرة، والعته والحمق، والصرع والجنون، والأمراض العُضال المزمنة كالشلل والسل والنقرس والبرص والسرطان، والجُذام، والعجز.. إلخ.

فأكثر المتسولين هم من خلق الله المصابين بأحد هذه العاهات والعلل والأمراض.. رغم الإيمان والادعاء، في هذا العصر، بتقدم الطب، والعلم واختراع الأدوية، استحضار العقاقير، والإبداع في أساليب الفحص والتشخيص والتحليل والعلاج!.

ولئن استفادت الدول المتقدمة الغنية من ذاك التقدم، فآوت العميان والصم والبكم.. مثلاً في مؤسسات تربوية مهنية، يتخرجون منها أعضاء عاملين منتجين، وأوجدت مؤسسات تأهيلية للمعوقين الآخرين، ووضعت الأمراض المزمنة في المشافي المختصة للاستشفاء وللتداوي، فلم تعد ترى في تلك المجتمعات واحداً من هؤلاء المعوقين والمرضى إلا في القليل النادر، فإن مجتمعات الدول النامية الفقيرة . ومنها أكثر المجتمعات العربية والإسلامية . ما تزال تزخر بجيش جرار من هؤلاء! يجوبون شوارع وساحات المدن الكبيرة، والعواصم، مع الأسف المرير، يستجدون ويسألون متخذين، من عللهم وعاهاتهم وأمراضهم، بضاعة يعرضونها على الناس، يستدرون بها عطفهم وشفقتهم ورحمة قلوبهم:

ولست أنسى أو أتناسى، ما قامت به بعض الحكومات العربية من جهود مشكورة، لمعالجة هذه المشكلات الهامة ذات الطابع الإنساني العام، غير أنها . كما أعتقد . ما زالت دون المستوى الشامل المطلوب، ولاسيما ونحن نتوق إلى الحلول الجذرية الحاسمة، التي رسم الدين الإسلامي الحنيف قواعده قبل كل النظم والتشريعات الأخرى.

إن هؤلاء من أصحاب العلل والعاهات والأمراض، قم مشمولون . بلا أدنى شك . بالأوجه الثمانية التي تُنفق الصدقات (أي الزكوات) وجوباً، بعد تحصيلها، وجوباً أيضاً . من الأغنياء القادرين على أدائها، دون إضرار بمصالحهم الخاصة، أو مساس لحرية تصرفهم بأموالهم وممتلكاتهم، بعد دفعها.

ج . الطلاق:

وهو فصل أو انفصال الزوجين أحدهما عن الآخر بسبب من الأسباب التي سنعرض لها حين التصدي إلى الطلاق ظاهرةً مرضية من الظواهر الاجتماعية، كالتسول، والتشرد وغيره.

أما هنا فإننا نعرض للطلق على أنه سبباً فقط من أسباب التسول، ولاسيما حين يقع بين الزوجين بعد إنجاب عدد من الأولاد، وحين تكون الزوجة فقيرة لا حلية لها ولا مهنة ولا كسب، ولا عائل ولا معين.

ما الذي يحدث إذن، بعد وقوع الطلاق في تلك الحالة؟ الغالب أن الزوج سيبتعد عن مطلقته وأولاده باحثاً عن زوجة أو امرأة أخرى، وإذا حالف الحظ المطلقة، فأمكن للقاضي أن يحكم بشيء من النفقة للأولاد على أبيهم، فستصل هذه النفقة الضئيلة القليلة إلى يد المسكينة المطلقة، لتنفقها على نفسها وأولادها في بضعة أيام، ثم لا شيء للأيام الباقية! ماذا تفعل إذن فإذا كانت، لا تزال تحتفظ بنصيب من نضارة وشباب، وجمال وصبا . وهي إنسان ذو غرائز وحاجات جسدية ملحة، لا يماري في ذلك إلا مكابر أو جاهل . وكانت لا تملك الزواجر والروادع المقنعة الكافية، هوت إلى أحضان الرذيلة، وأهملت أولادها، فتركتهم إلى شبح التسول والتشرد أو جرّتهم معها، وأدخلتهم في مجالها ومعتركها.

وإن كان لها رادع من دين أو خلق، أو أهل أو عمل تخلقه لنفسها، مرت الأمور بسلام.. وبلغت بر الأمان.

أما إذا لم يكن لها من ذلك نصيب، ولم تكن تملك من الشباب والفتوة والجمال بقية، فإنك واجدها . لا محالة . بين المستولين والمتسولات في الشوارع والطرقات، مع أولادها، أو منفردة وما أسوأها من عاقبة.

ولو أنك . يا قارئ . قمت الآن، فتجولت في شوارع الرباط، أو الدار البيضاء، أو آسطي أو الجديدة، أو مراكش.. لوجدت، على الأرصفة، عدداً لا يستهان به من هؤلاء المتسولات المطلقات أو الأيامى.. يفترشن الأرض مع أولادهن، أو يطفن بهم أو وحدهن يسألن الصدقة والمعروف من المحسنين.

ولسنا بناسين أو غافلين عن أولئك اللواتي، والذين اتخذوا من التسول مهنة أتقنوها، واستكملوا عدتها، فمنهم من يستأجر أو يستعير الأولاد ليسأل بهم، ومنهم من يتكلف العمى أو العته أو أية عاهة أو علة، ليسأل بها ولقد قيل لي: إن من المستولين طائفة غنية، تملك الدور والعقارات، والأرصدة في البنوك! وهم ما انفكوا يسألون الناس إلحافاً!!.

وأبو عثمان الجاحظ، في بعض كتبه، قد أشبع هذه الطائفة وصفاً وتتبعاً وإحاطة وسخرية وتهكماً وتندراً ولعله كفى غيره المؤونة في هذا السبيل.

د . التشرد:

وهو الابتعاد، أو الاضطرار إلى الابتعاد عن جو الأسرة، وحظيرتها ونظامها، بسبب انفراطها وتصدعها بالموت، أو الطلاق، أو الكوارث المختلفة وغالباً ما يصيب الأولاد اليتامى أو المطلقة أمهاتهم، أو الأولاد الضائعين أو اللقطاء، أو الهاربين من ظلم وقسوة زوجة الأب أو الأب أو الولي، أو الشاردين من الريف المحروم، من الأسر الفقيرة، إلى المدينة، حيث يتراكمون، ويتكاثرون، يبحثون عن عمل يقتاتون منه، وعن مأوىً يأوون إليه فلا يجد أكثرهم ذلك فيلجؤون إلى التسول والاستقصاء أو الجنوح إلى الرذائل أحياناً.. وترى بعضهم، إذا لم يجد المأوى، استلقى أو نام في مداخل الأبنية الكبيرة، وعتبات الأبواب، ومنعطفات الجدران، وزوايا البيوت والحدائق وغيرها.. والأمر يهون في الصيف، إما في فصل الشتاء القارس، أو البرد العنيف فإن الحالة تبدو أقسى وأمرّ، وأخطر من كل تصوّر، إنها جريمة لا تغتفر، بحق المجتمع أجمع، إذا سكت المجتمع وتغافل عنهم، ورضي بوضعهم هذا الموضع الظالم الشنيع، وجريرة في عنق أهلهم وذويهم، الذين تركوهم يتشردون ويضيعون، وويل للرعاة المسؤولين أمام الله! وكل راع، عن رعيته يُسأل ويحاسب كما أخبر الرسول (عليه السلام): (كلكم راعٍ وكلكم لمسؤول عن رعيته...)[١]. حسب طاقته ووسعه.

هذه هي أبرز أسباب التسول، في نظري، وإن كان هناك أسباب أخرى فليست، من الأهمية بحيث نرى ذكرها وتفصيلها ضرورياً، وحسبنا ما أوردناه مثلاً للأسباب كافة.

ولننتقل الآن إلى سرد وبحث نتائج ظاهرة التسول، التي حاولنا رصدها وتحديدها وفرزها عن غيرها من الظواهر.

النتائج والعواقب:

A . الإضرار بالشخصية المتسولة:

إذ لاشك في أن عملية التسول، قائمة على أساس احتياج المتسول إلى الآخرين، الذين يملكون أو يفترض المتسول أنهم يملكون ما هو بحاجة إليه، ومادام محتاجاً إلى هذا الشيء، فإنه أسير مالكه، ويسترحم ويستعطف، ويصطنع، في ذلك، الأساليب والحيل، والمذلة والمسكنة، حتى يناله أو ينال بعضه، ولقد قيل: أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم! وقيل: أنفق على غيرك تكن أميره! واحتج إليه تكن أسيرهُ واستغنِ عما عنده تكن نظيرهُ!.

نخلص من ذلك إلى أن في السؤال الاستجداء.. مذلة للنفس وإراقة للمروءة وماء الوجه. وقضاء على كرامة الإنسان، التي كرمه بها رب العالمين (ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا)[٢]. بعد أن سخَّر هلم ما في السموات وما في الأرض جميعاً، لينعموا به ويسعدوا، وينالوا من الطيبات في الدنيا قبل الآخرة، دون إسراف ولا مخيلة.

---

[١] ـ البخاري ومسلم.
[٢] ـ الإسراء آية (٧٠).

وفيه ـ أي التسول ـ تجرد، أو تجريد، في حالة الاضطرار من الإنسانية، ومن العواطف النبيلة السامية لأنه يُشعره بعدم المساواة، وغياب العدل والعدالة بين إخوته في الإنسانية، ومواطنية في المجتمع، وشيئاً فشيئاً يفقد المتسول كرامة الإنسان في نفسه، وشعور المواطنة، وبالتالي يفقد الشعور بالمسؤولية والتكليف، على أغلب المستويات، وربما تحول إلى حاقد على المجتمع، غاضب على الناس، ثائر بكل القيم والفضائل، فإلى مجرم منحرف، يعيث في البلاد والعباد فساداً، ويزرع فيهما الخراب والدمار.. ولذلك أوصى الله تعالى، ورسوله الكريم بالفقراء والمساكين، وغريهم من المحتاجين خيراً، وجعل لهم حقاً معلوماً من الزكاة يُدفع إليهم بلا أدنى منّ أو إيذاء بكلام أو غيره وبدون أي تفضل أو رياء أو تبجح.

ودعا الله سبحانه المؤمنين، إلى دفع صدقات التطوع إلى المحتاجين، دون اتباع ما أنفقوا مناً ولا أذىً، وحض، في أحيان كثيرة، على الأداء والمساعدة سراً وجهراً، لكي لا يسبب مهما يكن أي حرج أو إساءة أو ضرر وصور الرسول (صلى الله عليه وسلم، المؤمن المنفق سراً بأنه لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)[1]، كل ذلك بغية المحافظة على كرامة الإنسان والمنفق عليه، وصيانة مروءته وإنسانيته، وإشعاره بالأخوة المجتمعية، والإيمانية، والإنسانية وليس ذلك فحسب، بل أوجب الله سبحانه، حقاً معلوماً من الزكاة للمدينين ولضعفاء الإيمان، ولذوي الحاجات العارضة من أبناء السبيل وغيرهم.. يؤدي إليهم قبل أن يطلبوه، بلا مَنّ ولا أذىً ولا إساءة من أي نوع، تحقيقاً للعدل والمساوة والتضامن والتكافل وإشاعة المحبة والتعاون بين الجميع، وحفظاً لمروءة والكرامة.

B ـ حرمان الوطن والأمة من طاقة المتسول وإنتاجه:

وليس من شك ـ كذلك ـ في أن المتسولين هم عالة على غيرهم من الناس، مستهلكون غير منتجين، في الأعم والأغلب، يعتمدون على مكاسب ومساعي الآخرين، وبذلك يحرم الوطن ومجموع الأمة من طاقاتهم المهدورة، ويخسر مجتمعهم وشعبهم ذلك الإنتاج الهائل الذي كان يمكن أن ينتجوه ويغلّون، فيما لو كانوا عاملين منتجين، لا متسولين معولين!. ولا تستهينن بهذا الإنتاج، وتلك الطاقة حسبك أن تجري عملية حساب وإحصاء بسيطة، لتتبين ذلك العدد الضخم من المتسولين في طول البلاد وعرضها، وتلك النسبة المخيفة من الطاقات المهدورة، والإنتاج الضائع كل سنة.. فالحكومات والمخططون للمستقبل، مرافق الحياة، مدعوون إلى إعادة النظر في أمر هؤلاء المشلولين، وإيلائهم العناية الكاملة وتوفير الحلول الجذرية لهم، لإعادة البسمة، والإشراقة لكل بني آدهم، ومحو أسباب الشقاء والتعاسة والحرمان...

C ـ تشويه سمعة البلاد من عدة نواح:

فالمتسولون يسيئون ـ من حيث لا يدرون أو يدرون ـ إلى سمعة وطنهم وأمتهم، أمام السياح والزائرين من الأمم والأوطان الأخرى وذلك بعرض أمراضهم وعاهاتهم وعللهم وشوهاتهم وإبداء أسمالهم البالية، وثيابهم القذرة وعريهم المقرف، وعوراتهم الفاضحة.. والحقيقة أنهم ليسوا المذنبين الحقيقيين ولا

[1] ـ من السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). البخاري.

المسيئين المسؤولين، إنما المسؤول الحقيقي، المسيء الصريح هو النظام، والقائمون على تطبيقه، والجهاز العام، التشريعي والقضائي والإداري والتنفيذي.. فإلى هؤلاء ينبغي توجيه أصابع الاتهام واللوم، وعليهم إلقاء المسؤولية، في الدرجة الأولى، لأنهم الرعاة وكل راع مسؤول عن رعيته، والمتسولون فئة من الرعية.

وتشويه السمعة، على الناحية السياحية والاقتصادية فحسب، بل تتعدى ذلك إلى النواحي السياسية، والأخلاقية، والدينية وغيرها.

كيف يُسيء التسول إلى سمعة البلاد السياسية والدينية والأخلاقية.. ويُضر بهذه النواحي؟

بَدَهيّ أن القوة السياسية هي الامتداد التكميلي للقوة العسكرية، ووجهها الآخر، وأن هذه القوة العسكرية هي بدورها الامتداد للقوة الاقتصادية والمرآة المعبرة عنها، في أي بلد، أو أية أمة..

نستخلص مما تقدم أن أي ضرر يلحق بالقوة الاقتصادية، تنعكس آثاره . لا محالة . على القوة السياسية، القوة العسكرية أيضاً فهناك علاقات تأثير وتأثر جدلية بين القوى المختلفة للدولة أو الأمة.

والإساءة إلى سمعة البلاد السياسية ناجمة عن كون التسول ظاهرة محسوبة من عيوب السياسة الداخلية للدولة، ودليلاً فاضحاً على عجز الجهاز العام عن علاجها وحسمها، ولما كانت السياسة الداخلية جزءاً أو شطراً لأختها السياسة الخارجية، فقد تحققت الإساءة وعم الضرر السياسة العامة جميعاً للدولة ويمكن أن يقال مثل ذلك و نحوه فيما يتعلق بالناحية الأخلاقية والدينية.

فإذا كنا ننادي بأننا (خير أمة أخرجت للناس)[1] وأننا جملة رسالة خالدة، تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأننا أصحاب مكارم وأخلاق سامية وفضائل وأن لدينا حلولاً ناجعة حاسمة لكل مشكلات العالم، فإذا رأى الراؤون هذه الأعداد الضخمة من المتسولين والمشردين والمتصعلكين.. عندنا فماذا يقولون؟

أغلب الظن أنهم يصدقوا لنا قولاً! ولن يرعوا لنا إلاً ولا ذمةً، ولن يحترموا لنا عهداً ولا ميثاقاً، لأنهم سعتبروننا كَذَبةً أفاكين، ساقطين أخلاقياً ودينياً، وسيقولون عنا: إن هؤلاء عاجزون عن حل أبسط مشكلاتهم، فاشلون في إدارة أمورهم وشؤونهم ومصالحهم.. فكيف ولمَ يدّعون ما يدّعون، وينادون ويتشدقون ويصرخون؟!.

D . التسول يلد مزيداً من المتسولين:

والمتسولون يزيدون شهراً عن شهر وسنة عن سنة، وخاصة في المغرب، كيف، ولماذا؟

الجواب: لأن كثيراً من المتسولين يبدؤون محتاجين أو مجرمين أو مقلدين.. وينقلبون محترفين دائمين، ومورثي مهنة، ومعلمي احتراف، بعضهم يتخذ التسول مهنة أبدية لا يقلع عنها، حتى ولو سنحت له فرصة عمل طيبة وكسب شريف، لاعتياده وإلفته، وموت كرامته، واضمحلال مروءته.. ويعلمها أولاده... حتى الإتقان، فإذا مات خلفوه في المهنة.. وربما درب عليها آخرين غير أولاده، فأضاف إلى المتسولين أفواجاً!!.

---

[1] ـ إشارة إلى قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). آل عمران (١١٠).

أضف، إلى ذلك، لأفواج الطارئة على التسول، من ذوي الحاجات والعاهات والأمراض المستجدة، لأن المجتمعات، ولاسيما النامية المتخلفة منها ما انفكت تلد، كل حين، من هؤلاء، جديداً! والحبل على الجرار، ودولاب الزمن دوار!.

وقد تسألني: كيف تموت الكرامة، وتضمحل المروءة عند المتسول، على مر الزمن، واستمرار العادة؟ فأقول: إن سلطان العادة، أقوى من كل السلاطين، فمتى اعتاد الإنسان شيئاً أصبح بعضاً منه، وغدا هذا الإنسان أسير عادته. سواء أكانت خيراً أم شراً، وفي هذا الصدد يحضرني قول أبي الطيب المتنبي:

لكـل امـرئ مـن دهـره مـا تعـودا

وعادات سيف الدولـة الطعن في العدا

وقوله:

مـن يَهُـن يسـهل الهـوانُ عليـه

مـا لجـرح بميـت إيـلامُ!

وفي القرآن الكريم، كثير من الإشارات إلى أثر العادة وسلطانها على النفوس التي لا تحكم العقل، ولا تعمل الرأي، ولا تنصاع إلى الحق متى ظهر، جهلاً وضلالة، أو عناداً واستكباراً، كنفوس الكفار والمشركين والمنافقين.. إذ كانوا عند ما، يُسألون مثلاً: لماذا تعبدون هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؟ أو لماذا لا تتبعون ما أنزل الله من الهدى والحق المبين؟... يجيبون: (إنا وجدنا آباءنا أمة وإنا على آثارهم مقتدون)[١]، أو (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا..)[٢]. إنها إذاً العادة الآسرة، التقليد الأعمى الذي يستمر، فيصبح عادة مستحكمة.

E . إساءة التسول إلى الأطفال والأهل:

أولاً، لابد أنه قد لفت انتباهك، وراع فؤادك ذات يوم، منظر رجل أو امرأة تفترش الرصيف وقد نثرت أمامها على الأرض العارية الباردة، عدداً من الأطفال الصغار أشباه الحفاة العراة، الملوثين، بل الغارقين في القذارة والرثاثة والشقاء والبلاء قد فرضت عليهم حالة الطوارئ، فلا لعب ولا حركة، ولا تسلية ولا ضحكة، ولا ابتسامة ولا كلمة.. تعرضهم على المارة، تستدر بهم الشفقة والإحسان، وتسأل العون والمساعدة بني الإنسان.

وسواء أكانوا أولادها أم أولاد غيرها، فهم أطفال على كل حال بريئون، مساكين، محرومون معذّبون، وبلا ذنب لهم ولا جناية، لماذا؟؟

لماذا يقضي عليهم أن يعيشوا هذه الطفولة البائسة؟ وفوق هذا يضيّعون، ويضيّع حاضرهم ومستقبلهم!! إذ سيشؤون ويكبرون متسولين.. أللهم إلا إذا أدركت أحدهم يد العناية الربانية فأنقذتهم! سر

---

١ ـ الزخرف آية (٢٣).
٢ ـ لقمان آية (٢١).

في احد الشوارع الرئيسية بالرباط، أو الدار البيضاء أو الجديدة أو آسفي أو مراكش.. أو حتى في دمشق وحلب وسواهما تجد ذلك المنظر المؤذي المخزي مراراً، ويطالعك في الشوارع والساحات والأسواق تكراراً.. فهل لك أن تقدر عدد هؤلاء الأطفال الذين يُجنى عليهم، ويظلمون، وتطفأ ابتساماتهم إطفاءً وتود حياتهم في المذلة والهوان، والضياع والحرمان وأداً؟

ولو اقتصر هذا الضرر، وتلك الإساءة على الأطفال فقط، إذاً لهان الخطب، ولكنه يتجاوزهم إلى أهل المتسول، وذويه وأقاربه فيلحق بهم المذلة والمهانة، ويشركهم بالدناءة والفضاضة.. وقد يغري بعضهم ويدفعه إلى التسول ويشجعه على سلوكه، جاعلاً من نفسه القدوة الحسنة في هذا السبيل!!.

تلك هي أكبر وأظهر النتائج والعواقب المتولدة من ظاهرة التسول، ولنأخذ الآن، ببيان ما نراه من الحلول والعلاجات المقترحة:

الحلول المقترحة أو العلاج

إذا تصورنا أن المجتمع كالجسم البشري، وأن ظواهره المرضية، هي كأمراض هذا الجسم، وأن ظاهرة التسول في أي مجتمع بمثابة مرض خبيث في هذا الجسم، وكما أن لتلك الظاهرة الاجتماعية أسباباً وراء حدوثها وتفاقمها واستمرارها.. فإن للمرض الجسمي أسبابه أيضاً، ولنأخذ مثلاً هبوب الريح أو هطول المطر أو حر الشمس أو تلوث المياه وما إلى ذلك مما يسبب أذىً أو مرضاً للجسم فإن أول خطوة في طريق العلاج هي الحماية من تلك العوامل ومن البدهي أن لا حادث بدون أسباب، وأنه إذا انتفت الأسباب بطل الحدث، فلنا أن نتصور إذاً، أن التغلب على أذى الريح والمطر والشمس والتلوث إنما يكون بحماية الجسم من تأثير هذه العوامل بطريقة من الطرق، وهو أول الطريق إلى العلاج والشفاء.

انطلاقاً من هذا المثل البسيط، نستطيع القول: إن الحلول الصحيحة الناجحة، في تصوري هي قطع روافد ومنابع الظاهرة أولاً، ومعالجة الظاهرة نفسها، في الوقت ذاته.

ثانياً: وهذا يعني القضاء على ظاهرة التسول، أو معالجتها، لمنع تأثيرها، أو الحد من تأثيرها . على الأقل ت ومعالجة الظاهرة نفسها ولنعد إلى هذه الأسباب مشفوعة بتلك المعالجة المقترحة:

I . علاج البطالة:

أرى أن العلاج يكمن في أشياء منها ما هو ذاتي نفسي، ومنها ما هو موضوعي خارجي:

أ . الصبوة إلى العمل: وهو أن يريد المرء العاطل ويحب ويتوجَّه إلى عمل ما، من تلقاء نفسه، تحدوه الرغبة والحاجة إلى التحرك، والسعي لكسب قوته وسد حاجاته، كما يتحرك ويسعى أي طائر في الجو أو أية دابة على الأرض، أو أي مخلوق في جوف البحر.

ب . التشغيل: وأعني به توفير فرص العمل، بأجوره وشروط مناسبة، لكل قادر عليه، وهو لا يجده بنفسه، وهذا واجب على أولي الأمر، وعلى الحكومات بأجهزتها وإمكاناتها ووسائلها المختلفة، وعلى ذوي الغنى والثروة أيضاً.

ج . الضمان الاجتماعي: وهو يحقق عن طريق سن القوانين الدائمة التي تضمن للعاطل، ما دام عاطلاً، دخلاً يكفيه ومن يعول، وذلك من موارد الزكاة (والحق المعلوم للسائل والمحروم)[1]، وهو الأفضل والأحسن، أو من موارد ضريبية مفروضة مباشرة أو غير مباشرة على الموسرين والقادرين، أو من ريع أوقاف قديمة، وهي كثيرة في كل بلد، أو مشاريع حديثة برؤوس أموال مشتركة بين الدولة والمحسنين الموسرين.. وأصحاب رؤوس الأموال.

د . الضمان الصحي: وهو توفير العلاج والرعاية الصحية والدواء مجاناً، وذلك بتشريع قانون ثابت لهذه الغاية، ويزود كل عاطل عن العمل ببطاقة تشعر بحالته، وتموَّل مؤسسات الضمان الصحي من الزكوات المجموعة، وصدقات التطوع، وتبرعات المحسنين وغير ذلك.

II . علاج السبب المتمثل في العاهات، والعلل، والأمراض المزمنة:

مما لا شك فيه، أن علاج انتشار المتسولين من المرضى والمعلولين، والمشوهين والمقعدين والعجائز المُعمِّرين.. هو جزء من علاج ظاهرة التسول جمعاء، وهو أمر ضروري، عاجل وملح وهو واجب اجتماعي وديني وإنساني.. وهذا العلاج كما أتصوره يكون بإقامة المشافي المختصة، ومراكز الرعاية والتأهيل للعمل، فالمرضى المحتاجون للعلاج والتداوي، يحالون إلى تلك المشافي يتلقون ما يحتاجون إليه مجاناً، حتى يشفوا ويخرجوا ليجدوا فرص عمل مناسب تنتظرهم وذوو العاهات والتشوهات يرسلون هاتيك المراكز ليتلقوا فيها العناية والاهتمام والإعداد والتأهيل، كل حسب ما يناسبه من الإعداد، وحسب طاقته واستعداده.

فإذا ما تم تأهيلهم وإعدادهم للمهن و الحرف والأعمال المختلفة الملائمة أحيلوا إلى قطاعات العمل الإنتاج ليصبحوا أعضاء عاملين نافعين، وهكذا..

وليس ينكر ما قامت به بعض الدول العربية والإسلامية، من مساع وجهود في هذا المضمار، غير أنها لم تبلغ حتى الآن، ذلك المستوى الذي بلغته في بعض الدول المتقدمة، والذي يكون العلاج معه شاملاً وحاسماً.

إننا لا نريد حلولاً ترقيعية وسطية أو علاجات ترقيعية بجهود تدريجية، بل نطمح ونريد أن تكون الجهود منصَبّة بكثافة كافية لتحقيق النتائج الحاسمة.

إننا نعرف أن هناك مؤسسات اجتماعية لرعاية المكفوفين والصم والبكم، وجمعيات خيرية للاهتمام بالعُجّز والمقعدين والمشردين والأيتام.. إلا أنها ليست في المستوى المطلوب.. وليست من الشمول بحيث تفي بمهمات العلاج الكامل الحاسم.

ولقد انتهى إلى علمي أن بعض المتسولين من المعطوبين والمقعدين وغيره يفرّون من بعض هذه المؤسسات والجمعيات كلما أتيحت لهم فرصة الهرب، نظراً لسوء المعاملة نقص الرعاية والاهتمام الذي يجدونه فيها.

---

[1] ـ إشارة إلى قوله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم).

وكثير منهم ـ حسب استطلاع رأي بعضهم ـ يؤثر أن يبقى خارج هذه المؤسسات، يتسول حراً من القيود والمضايقات والحصارات التي يتعرض لها داخلها!.

حقاً إنهم بشر، لهم مشاعرهم وعواطفهم وميولهم ورغباتهم كغيرهم، وليسوا ماشية أو أنعاماً تحبس، ويُقدم لها الطعام والشراب وبعض الخدمات.

لذلك يجب أن توفر لهم هذه المؤسسات كل المرافق والخدمات والوسائل، والمتخصصين من المربيات والمعلمين والمدربين.. أي كل ما يحتاج إليه المواطنون العاديون في حياتهم.. وربما أكثر! أما الذين أمضوا مرحلة الإعداد والتأهيل، فينبغي وضعهم في مواضعهم الملائمة من المجتمع فور تخرجهم، وأما الذين هم زمنى ومقعدون دائمون فيجب تمكينهم من مخالطة الناس، والانخراط في نشاطات المجتمع دائماً، أو ـ على الأقل ـ بين الحين الآخر.. بواسطة الدراجات والعربات المناسبة، وما إلى ذلك من الوسائل لكي يشعروا بالتعاطف والمشاركة والسوية مع المجتمع، ويستأنسوا ويتعرفوا على تيار الحياة، ويعيشوه، فلا ينحرفون ولا ينعزلون، ولا تغزوهم الأمراض النفسية المختلفة، ولا يغشاهم الحزن والكآبة وقد تكون بعض الأعمال اليدوية وغيرها ملائمة وصالحة لهم، كل حسب ميله من رغبته واستعداده وقدرته، ومساعدة لهم على بلوغ حالة الشفاء والارتياح والرضا..

ملاحظة هامة:

نترك، هنا البحث في علاج السببين الآخرين لظاهرة التسول وهما:

الطلاق، والتشرد، لأننا سنبحثهما في موضعهما من هذا الكتاب على أنهما ظاهرتان من الظواهر المرضية الاجتماعية فيرجى الانتباه.

التشـرد
Le vagabondage

وصف وفرز:

شَرَدَ، يشرُدَ، شروداً... تعني . في المعجم . نفر، شرَّده، طرده ونفّره، فهو مشرَّد وشَريد كمطرَّد وطريد. وتشرّد القوم: ذهبوا، والقافية الشاردة: هي الذاهبة في البلاد. قال المتنبي في قوافيه:

أنـام مـلء جفـوني عـن شـواردها

ويســهر القــوم جراهــا ويختصــمُ!

فالتشرد والشرود، في المجتمع، هو الهرب والنفور من الخلية الاجتماعية أي الأسرة، والنفور والاضطهاد، أو القسوة والعنف، أو الخوف والتوجس أو المنع والحرمان.. أو غير ذلك من الأسباب الكثيرة.

وغالباً ما يكون المتشردون من الأطفال الصغار ذكوراً وإناثاً، ومن الأسر الممزقة المتصدعة، بسبب اليتم أو الطلاق أو الأيم: أي فقد أحد الزوجين الآخر، أو الكوارث الطبيعية، أو الحروب والمنازعات.. إلخ.

وسنعرض لهذه الأسباب مفصلة، بعد الفراغ من وصف الظاهرة وفرزها وتحديدها، وبيان مظاهرها وصورها المختلفة في المجتمع.

فالمتشرد، إذاً طفلاً أو طفلة هارب من أسرته وبيئته الصغيرة، إلى المدينة أو القرية الكبيرة، تخلصاً من ذلك الشبح الذي يُقض مضجعه ويؤرق نفسه، ويهدد كيانه ووجوده، وطلباً للأمان والاطمئنان، أو الرزق والكسب.. ولكنه سرعان ما يصاب بخيبة الأمل، بالخوف والقلق والعذاب والضياع..

إذ لا يجد المأوى، في هذا المحيط الذي صار إليه، فينام على الأرصفة، وعتبات الدور، ومداخل البنايات، زوايا الخرب والدور المهدمة، وأركان الحدائق.. ينهشه برد الشتاء ويؤرقه ليله ومطره، وتهاجمه حشرات الصيف وحرارته فتتركه فريسة للأمراض والآلام أحياناً كثيرة.. بالإضافة إلى سوء التغذية، لرداءة الأطعمة والأشربة التي يتناولها، إذ يتغذى . غالباً . مما يحصل عليه من فتات الخبز الأدام، وما يقع عليه، أو يرمى إليه من بقايا الطعام، وفضلات الموائد، وهو كثيراً لا تتاح له فرصة العمل، والكسب الشريف، فينضم على جيش المتسولين، أو يجنح مع الجانحين، والمنحرفين، فيسرق ويسطو وينهب من الدور أو الحوانيت كلما سنحت له الفرصة، وقد يتبع الفسَّاق والزناة السكارى والحشاشين وغيرهم، فيغدو مثلهم... وتسقط المتشردة . غالباً . في أحضان الرذيلة والعهر والفساد.. حتى إذا ما استنفذت طاقتها وشبابها ونضارتها، ولم يبق عندما ما تتاجر به، وتغوي لجأت إلى التسول، تتعيش منه، وتسترزق أو عمدت إلى التقويد والدعارة وما إلى ذلك.

وفي الغالب تتشكل بضاعة القوادات والقوادين والدُّعار من المتشردات والمتشردين، الذين ألقت بهم ظروف الحياة القاسية إلى أنياب وبراثن هؤلاء، بعد أن أعيتهم الحيل، وسُدت في وجوههم السبل، سبل العمل الشريف، والكسب النظيف.

وقد يتخذ القليل منهم حرفة أو مهنة يتكسب منها، ويكف عن نفسه ذل السؤال، ويبعد شبح الحرمان، كمسح الأحذية، أو خدمة البيوت والحوانيت أو دور السينما والمسارح، أو بيع الدخان والصحف والسكاكر وغيرها.

وقد يحالف الحظ بعض المتشردين فيعملون بأجر جيد ثابت لدى بعض أصحاب الحوانيت والدكاكين، أو المصالح والمهن... ويبنون حياتهم من جديد، وتحسن أحوالهم، ويصبحون أفراداً صالحين طيبين، ولكن هؤلاء قلة قليلة، بالقياس على الكثرة الكثيرة التي تستغرقها حياة التشرد، فتجنح إلى التسول، أو العهر والفساد، أو الانحراف والإجرام، أو العربدة والفجور.. أو تصاب بالأمراض العقلية والنفسية كالجنون والهيستريا وانفصام الشخصية وغيرها.

الأسباب:

أ ـ **الطلاق:** يبدو الطلاق، للمتفحص، أدنى أسباب التشرد، وأبرزها، وأقواها، لأنه أوسع انتشاراً، وأكثر وقوعاً، ولاسيما في المغرب! بسبب تكاثر المشاكل، وتعقد العيش، وضعف التدين والتمسك بالخلق الكريم والفضيلة.

وشبيه بالطلاق المخالعة وهي افتراق الزوجين عن تراض بينهما واتفاق، وكذلك الهجر والفراق هو أن يعمد أحد الزوجين إلى ترك بيت الزوجية وفي كل الأحوال تقع جل المصيبة أو الكارثة على الأولاد، إن كان هناك أولاد. لأنهم إما أن يبقوا عند أمهم، محرومين من أبيهم، وإما عند أبيهم حينما يتزوج بأخرى، محرومين من أمهم، أو يبقوا مكرهين، عند جدتهم لأبيهم أو لأمهم، محرومين من حنان الأبوين ورعايتهما، في حالة انتقال أمهم إلى زوج آخر، وأبيهم إلى أخرى لا تريدهم معها، أو بقائه عزباً متنقلاً حيث شاء من المحظيات أو العشيقات.

وغالباً ما تتشرد الأم وأولادها، نتيجة الطلاق، كما يُرى كثيراً في المغرب! وقد يتشرد بعض الأولاد أو كلهم، إذا اتبعت الأم هواها وأهملتهم، وقد يتشرد الأطفال عن بيت أمهم إذا تزوجت، وكان الزوج ظالماً قاسياً عليهم، متعسفاً برماً بهم، أو يتشردون عن بيت أبيهم، إذا كان متزوجاً بامرأة غيور غضوب تعامل أولاد زوجها بالعنف والشدة، ولا ترعى فيهم عهداً ولا ذمة، وتحرمهم حقوقهم الطبيعية، وتحمل أباهم على أن يجنف ويجحف في معاملتهم فلا يجدون أمامهم مفراً من الهروب والتشرد...

ب ـ اليتم والأَيمُ: ونعني باليتم أن يفقد الأطفال الصغار أحد أبويهم أو كليهما موتاً، أو قتلاً، أو غير، وهم في أمس الحاجة إلى النفقة والتربية والرعاية والحنان..

والأيم: هو فقد الزوجة لزوجها أو الزوج لزوجته، بسبب من الأسباب والأيم، في الواقع يُتْمٌ بالنسبة للأولاد، على كل حال. لذلك فالأولاد اليتامى كالأيامى، إذا لم يجدوا من يعولهم، وينفق عليهم ويكفلهم

ويكلؤهم، سيتشردون ويضيعون في الشوارع والأزقة والطرقات وسيضيع حاضرهم ومستقبلهم، في التسول أو الرذيلة والانحراف.

كم من مرة شاهدت أيتاماً هائمين على وجوههم هنا وهناك، لا أحد يعيرهم انتباهاً، أو يُعنى بهم، يسعون في أسمالهم البالية، والقذارة تملأ دنياهم والشقاء يعمر وجوههم وحياتهم، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، في ذاك الجو البارد والزمهرير، والليالي الليلاء الظلماء، ويغتالهم حر الشمس والجوع، ويتكالب عليهم الذباب والحشرات!!.

ج . الحروب والنزاعات: وهي أدهى الأسباب وأمرها، في القديم والحديث، وهي أشدها بلاء وأكثرها ويلاً وشراً، إذا لم تستطع الإنسانية رغم تقدم العلم والعقل، أن تتخلص منها، أو تخفف من عقابيلها وكوارثها، والحروب والنزاعات كانت وما تزال النبع الأسود المشؤوم، الذي لا ينضب ولا يفتأ يُمد الإنسانية بكل أنواع البلايا والشرور والآثام والمظالم، كاليتم والأيم والتشرد، والمرض والقلق والخبل والجنون والبطالة والفاقة والبؤس والعنف..

وحسبنا مثلاً، ما سببته تلك النزاعات القبلية بين القبائل العربية: كحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، ويوم تحلاق اللمم، ويم حليمة... من شؤم وخراب ويتم وعذاب.. وما سببته الحربان العالميتان في القرن العشرين، وما سبقهما وتلاهما من الحروب والنزاعات المحلية والإقليمية والدولية، وكذلك الحروب الملعونة المشؤومة بين العرب وإسرائيل والتي أعقبت ملايين المتشردين والمشردين وآلاف المعذبين المقهورين.. والجياع والمحرومين واليتامى والثكالى، الأيامى والمفقودين والضحايا.. وما يقدّر بعشرات المليارات من الخسائر المادية والأرزاق والمزروعات والبنى التحتية والفوقية.

د . الكوارث الطبيعية:

مع الأسف الشديد، نقول إن الكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين وأنواع الطواعين، قلما خلت منها حقبة من حقب التاريخ، فمن طوفان نوح إلى قلب المدائن عاليها سافلها، إلى الريح الصرصر العاتية إلى الرجفة التي أخذت بعض الأقوام العصاة . كما يخبرنا القرآن الكريم . إلى بركان بومباي بالهند وانخساف مسينا بإيطاليا وغرقها في البحر، إلى زلزال مدينة أغادير بالمغرب، والزلازل اتي ضربت مدينة الأصنام بالجزائر، والزلازل التي أصابت إقليم ذمار باليمن وغيرها من النوازل والخطوب.. التي وقعت ولا تزال تقع على ظهر هذه الكرة الأرضية.

وعندي أن تفسير الكوارث الطبيعية هو كما يلي:

أولاً . بعض الكوارث ينزلها الله القادر على كل شيء، عقاباً وقصاصاً لقوم عصاة، فسدة، ميئوس من صلاحهم وخيرهم، مخوف من شرهم وغيهم على غيرهم من الأقوام المجاورة، فتكون الحالقة الماحقة.

ثانياً . وبعضها الآخر، يصيب بها قوماً عصى أكثرهم وفسدوا وفيهم بقية من الصالحين الطيبين وزجراً للعصاة، وردعاً للغواة، وابتلاءً أو استنهاضاً للأخيار الصالحين كي يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتحركوا بالتقويم والإصلاح وإلا كانوا كالعصاة الأشرار، وشملهم البلاء وعمتهم الفتنة

والكارثة، التي قد ينزلها الله (تعالى) بهم عاجلاً أو آجلاً، قال تعالى: (واتقوا فتنة لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً)[١].

ثالثاً . وبعض الكوارث الطبيعية تنزل بالبشر، أو . على الأصح . ينزلها البشر بأنفسهم، جهلاً ومكابرة وعناداً رغم تحذير الله (تعالى) لهم حيث يقول: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)[٢]. كلنا يعلم أن في الكون، نواميس وقوانين وسنناً دائمة ثابتة، وكل مخالف لها يوقع نفسه في الدمار والتهلكة طائعاً مختاراً، إلا من رحم الله، فأدركه بلطفه وحفظه وعنايته، فتكون خارقة من الخوارق، أو معجزة من المعجزات التي يخص الله (تعالى) بها بعض البشر: كتفجر العيون من الحجارة الصم الصلاب بضربة من عصا موسى، عليه السلام، وكانقلاب تلك العصا نفسها، في وقت آخر حية تسعى، وكصيرورة النار اللافحة برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وكابتلاع الحوت النبي يونس عليه السلام، ثم لفظه إياه سالماً على الشاطئ وكالإسراء والمعراج إلى السموات العلا والاطلاع على كثير من أسرار الكون وآيات الله فيه، والعودة إلى مكة في ليلة واحدة، أو بعض ليلة كما حدث للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وكحنين الجذع له (عليه السلام)، وانشقاق القمر.. وما إلى ذلك.. وكإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص والإخبار ببعض المغيبات، التكلم إلى الناس في المهد.. وغيره من الأمور الخوارق التي كان مخصوصاً بها النبي عيسى (عليه السلام).

وفيما عدا ذلك، فالملقي بنفسه في البحر، لا يعرف السباحة والعوم، لا بد أن يغرق، والملقي بنفسه في النار لابد أن يحترق، والذي يضرب صخرة بعصاه طلباً للماء، مقلداً سيدنا موسى لابد أن ترتد عصاه إليه مكسرة محطمة! ومن يعرض نفسه لحيتان البحر وقروشه أو سباع البر ووحوشه، لابد أن يكون لها طعاماً لذيذاً. وصيداً طرياً!.

والطيار الذي يخالف القوانين المعروفة، والحدود المرسومة في الارتفاع أو السرعة أو الانعطاف أو الهبوط.. يلقى حتفه مع طائرته وركابه . لا محالة . وعلى هذا نستطيع القول . بالقياس على ما مر . إن استبطان الأماكن البركانية، أو المناطق المعروفة بفورات البراكين، وحدوث الهزات والزلازل، واتخاذ الأبنية الشاهقة، والقصور الحجرية السامقة عليها . أي الأماكن الخطرة . هو . بلا شك . نوع من إلقاء النفس في التهلكة، أو . على الأقل . هو نوع من اللعب بالنار... وركوب للمخاطر والمجازفات! التي قلما يسلم فاعلها من الشر والتهلكة، قال النبي (ص) :(دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)[٣].

(ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه)[٤].

والحذر من المهالك والمزالق، واتخاذ الحيطة وإعمال العقل والفكر، والتنبه واليقظة.. كل ذلك واجب يفرضه الدين، ويدعو إليه في كل آية وحديث في هذا الصدد، وخلاف ذلك هو التواكل والتسيب،

١ ـ الأنفال ٢٥.
٢ ـ البقرة ١٩٥.
٣ ـ إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام (ص) الخطبة ٣٦٤، (فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة)، أحمد وأبو نعيم وابن حبان.
٤ ـ البخاري.

والجهل والضلال، والبعد عن الحق والصواب، والهدى والنور، والانسلاخ عن الدين القويم، والطريق المستقيم، والكتاب المبين، وسنة النبي الأمين البيضاء الواضحة التي لا يرفع عنها إلا هالك)[1].

وبناء على ما سبق، نستطيع أن نقرر: إن كثيراً من الأوبئة والأمراض والطواعين التي تصيب الناس، أفراداً وجماعات إن هي إلا جناية أيديهم، ونتيجة جهلهم وسوء تصرفهم: إما لعدم اتباع سبل النظافة والطهارة وإماطة الأذى، أو عدم اتخاذ الوسائل والتدابير المأمور بها، وإما للتفريط والإهمال واللامبالاة، أو الإفراط والإسراف والغلو: المنهي عنه بصريح الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة ودلائل العقل والمنطق والفطرة السليمة..إلخ.

النتائج والعواقب:

لا ريب في أن نتائج وعواقب التشرد، تشبه، إلى حد كبير، نتائج وعواقب التسول، التي أتينا على ذكرها من قبل، وقد أشرنا من قبل أيضاً إلى أن التشرد أحد أسباب التسول، ويمكن تلخيص هذه النتائج . باختصار . فيما يلي:

١ . الإضرار بالذات المتشردة، إذ يشعر المتشرد بالذلة والضعف والمسكنة، وبالفقد والحرمان، وبالضغينة والحقد على أبناء المجتمع الآمنين المنعم عليهم، مما قد يدفعه إلى الإجرام والانتقام، أو الانحراف والجنوح إلى الرذائل المختلفة..

٢ . الإضرار بالأسرة التي خرج منها المتشرد: إذ يزيدها تمزقاً وتصدعاً، ويشكل . بلا ريب . أحد عوامل هدمها وزوالها.

٣ . الإضرار بالوضع الاقتصادي للبلاد، بحرمانها من جهود المتشردين ونتاجهم، وحملها أعباءهم المعاشية، وتبعات تشردهم...

٤ . الإساءة إلى سمعة البلاد السياسية والدينية والأخلاقية.. وغير لك مما عددناه وبيناه، عند الكلام على عواقب التسول ونتائجه.

العلاج أو الحلول المقترحة

I . علاج الطلاق:

نرجئ البحث هنا، في هذا السبب، إلى ما بعد، حيث سنعالج، بالتفصيل، إن شاء الله، الطلاق كظاهرة من الظواهر الاجتماعية المرضية.

II . علاج اليتم والأيْم:

لا يقدر أحد، في الواقع أن يحول دون فقد أو موت أحد الأبوين أو الزوجين، أو كليهما وبالتالي وقوع اليتم على الأولاد، أو الأيم على أحد الزوجين، وإلاّ لعاش النبي محمد بن عبد الله (ص) بين أبويه، ولم يضطر إلى العيش عند جده عبد المطلب، فعمه أبي طالب وهو من هو عند الله (تعالى) وعند عباده المؤمنين.

---

[1] ـ إشارة إلى الحديث الشريف: (تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها ولا يرفع بعدها إلا هالك).

وإنما الذي نقدر عليه . بلا شك . هو كفالة اليتامى والأيامى وذوي الحاجات المتابينة وحمايتهم من التشرد والضياع والتخفيف عنهم ما أمكن، وزرع الفرح والابتسام على شفاههم، والسعادة والأمان والمحبة في قلوبهم، وإزالة الألم والعذاب من نفوسهم..

والله (سبحانه وتعالى) نهى عن قهر اليتيم وظلمه (فأما اليتيم فلا تقهر)[1]، وأوصى بالإحسان إليه وإطعامه: (ويطعمون الطعام، على حبه، مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً)[2].

وأمر بالقسط والعدل في معاملتهم، ودعا إلى التزوج باليتيمات، ومعاملتهن بالمعروف والإحسان كغيرهن من النساء الفاضلات.

والرسول الكريم (ص) أوصى باليتامى، وحض على كفالة اليتيم، وشجع كقوله: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما..)[3]. وفي الأحاديث الأخرى إشارات كثيرة إلى ضرورة الاهتمام والعناية والحماية التي ينبغي أن يحاط بها اليتيم، وكان . صلى الله عليه وسلم . في ذلك المثل، الأعلى والقدوة الحسنى.

وأرى أن تنشئ الدولة مراكز رعاية لليتامى والفقراء ومثلها للأيامى العاجزين والعاجزات، ولذوي الحاجات الخاصة يجدون فيها كل ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ومشرب، ومرتع.. وأن تكون نفقات تعلمهم ودراستهم وإعدادهم وتأهيلهم.. على الدولة.. وتستطيع الدولة سد هذه النفقات والمصاريف من موارد الزكاة، والصدقات والتبرعات والأوقاف، أو الضرائب المباشرة وغير المباشرة.. ثم تشغيلهم، كل حسب استعداده وطاقته الأمر الذي يقطع دابر هذا المرض ويسد أبواب التسول.

ولا يمكن . بأي حال . أن تكفي جهود تلك الجمعيات الخيرية الخاصة، التي نيفق عليها ويقوم بها المحسنون الأبرار من المواطنين لأن هذا الزمن لم يعد يسمح بتلك الترميمات الهزيلة، والترقيعات الفاشلة، وإما الذي يجزئ ويساير العصر، هو الحلو الناجعة، والعلاجات الحاسمة التي تقوم بها، أو . على الأقل . تساندها وتدعمها الدولة، بثقلها وجهازها وإمكاناتها الضخمة، ووسائلها المتنوعة..

فقد مضى عهد الجهد الفردي، والجهد الشرذمي، وجاء عهد الجهود الدولية، والتكتلات الأممية..

III . علاج الحروب والنزاعات:

ما هي الحرب؟ وما هو النزاع؟

يبدو لي أن الحرب بين فئتين، أو فئات وآخرى، إنما هي الصراع بينهما بواسطة القوى العسكرية، أو السياسية أو بكلتيهما، ولابد أن تقف وراءهما القوى الاقتصادية، وهذا الصراع من أجل أسباب متنوعة متعددة، منها:

١ . توسيع المجال الاقتصادي:

---

[1] ـ سورة الضحى ـ الآية ٩.
[2] ـ الإنسان ٩.
[3] ـ البخاري.

أي زيادة رقعة الأرض التي تقيم عليها الدولة المحاربة، بالانقضاض على أراضي الدول الأخرى، كما كان الشأن بالنسبة لألمانيا، في الحرب العالمية الثانية.

٢ . تنامي القوة العسكرية، وما وراءها من القوى الأخرى:

إذ قد تلجأ بعض الدول التي تصل إلى التخمة في قوة جيوشها وقواها الأخرى التي تساندها، إلى التخفيف والتفريغ من ضغطها وتفاقمها على الوضع الداخلي.. بشن الحرب على دلو مجاورة أو غير مجاورة، متسترةً بشعارات ترفعها، أو متذرعة بحجج وعلل تدعيها سواءً حققت هذه الحرب مكاسب أم خسرت مواقع..

٣ . الشعور بالفردية، أو الجنس المتميز، أو بواجب نقل الحضارة، أو تصدير المبادئ: وذلك نتيجة لوضع ثوري في حال مد وانتشار.. وغير ذلك مما ينضوي تحت هذا السبب، فلعل الشعور بالفردية هو الذي دفع كلتا الأمتين القديمتين والإمبراطوريتين العظيمتين الفرس والروم، إلى التحارب والتصارع بينهما، ردحاً طويلاً من الزمن، وكذلك بين الفرس واليونان.

أما نظرية الجنس أو العرق المتميز، فربما كانت وراء حروب الأمة الجرمانية، في كثير من الأحيان، ووراء الغزو الصهيوني للأراضي العربية..

أما الشعور بواجب نقل المدنية والحضارة إلى الشعوب والأمم التي تُرمى بالتخلف والعزلة.. فقد يكون وراء تلك الحملات الصليبية على بلاد الشرق، وحروب بعض الدول الأوربية في بلاد إفريقيا.. تحت شعار التبشير بالمسيحية وحجة التمدين والتحضير..

وأما ما يتعلق بتصدير مبادئ الثورة، فأمثلته كثيرة وواضحة، في عصرنا على الخصوص.

وقبل الخوض في هذا الموضوع، ينبغي أن يُفهم منا أن تصدير مبادئ الثورة أو الثورة كاملة إلى الجيران وغيرهم أمر طبيعي بدهي لا عيب فيه ولا غضاضة، إنه امتداد منطقي للثورة وحماية لها من الانتكاس أو الردة أو الاعتداء.. فبدءاً بثورة يوليو . تموز ١٩٥٢ بزعامة عبد الناصر، ورفاقه الضباط الأحرار في مصر العربية، التي أراد لها مفجروها وقادتها أن تمتد إلى الأقطار العربية الأخرى، فنشأت الحرب في اليمن وغيرها.. وحدثت بعض الصراعات والنزاعات والثورات هنا وهناك في الوطن العربي وخارجه.. كالثورة في القطر العربي السوري، والثورة العراقية، وثورة السودان وثورة ليبيا، والثورة الجزائية.. إلخ.

وانتهاء بالثورة الإيرانية الإسلامية، التي ما إن قامت حتى أخذت تهز الكيانات الدولة الأخرى، ولاسيما المجاورة، وذلك بطرحها جملة من المبادئ والأفكار والأهداف التي تراها بديلاً لما هو سائد.. وربما كانت الحرب العراقية الإيرانية نتيجة لذلك، فهي إما أن تكون وقعت من جانب الثورة الإيرانية الإسلامية لتصدير الأفكار والمبادئ وفرض البديل أولاً بأول على الأقرب فالأقرب، والبرهنة على النجاح والصلاحية والديمومة، وإما أن تكون وقعت من جانب الثورة العراقية أولاً، رداً على التحديات

والاستفزازات، وعملاً وقائياً احترازياً لحماية نفسها، وتحصين مبادئها وأسسها وأفكارها المغزوة، والمهددة من جهة الثورة الإيرانية.

وأياً ما كان الأمر، فإن هذه الحرب هي صراع بين ثورتين، ولابد أن ينتهي قريباً، بحول الله وعونه، وينكشف ما نجهل، والأقرب إلى الفهم والمنطق . في رأيي وتصوري . أن الجانب الإيراني هو الذي كان يريد تصدير مبادئ الثورة المنتصرة إلى العراق، ودول الخليج، وسائر بلدان العالم العربي وغيرها.. أما العراق، في نظري . فلا يمكن أن يتطلع إلى هذا التصدير، لأنه مشغول ببناء قوته الذاتية وتحسين الأوضاع الداخلية المختلفة، وإخماد الفتن، وإذا ما كانت له الوفرة والعدة والقوة الكافية في يوم من الأيام، فسيتوجه بتصدير الثورة إلى العالم العربي أولاً ثم إلى إيران وتركيا وغيرها ثانياً.

أما النزاع فهو الصورة المصغرة المحدودة للحرب والنزاع قد يكون بين دولتين . ولكن بشكل محدود ومحكوم زماناً ومكاناً وقوىً.. وقد يكون بين قوتين أو قوى، بعضها مع بعض في دولة واحدة، كما قد يكون بين جماعتين، أو قبيلتين، مثل أكثر تلك النزاعات التي كانت تقع بين القبائل العربية في الجاهلية وللنزاع . أيضاً . أسبابه المتعددة التي نلحظ منها: حب الزعامة والتسلط، والسيطرة الاقتصادية على أملاك الآخرين، وغلبة الروح القبلية والتعصب والجهل..على التعاون والتعايش السلمي، والحكمة ووضوح الهدف، والإذعان للحق وإرادة الخير العام.

٤ . نشر الرسالة السماوية والصدع بالحق:

وهذا السبب من أسباب الحرب . هو الذي استندت إليه الغزوات والفتوحات الإسلامية العربية الكبرى، في أغلب الأوقات، إذ يأمر الدين الإسلامي بالجهاد، ومحاربة قوى الشر أينما كانت. وإحقاق الحق والعدل والتصدي للباطل، وإعلاء كلمة الله المتمثلة بعبادته وحده، ونشر رسالته في العدالة والمساواة، والخير والإحسان، وإعطاء كل ذي حق حقه، وذي فضل فضله، وإلغاء كل أنواع التفرقة والميز بين البشر، إلا بالتقوى والعمل الصالح، وخدمة الجماعة المؤمنة إلى الخيرات والمبرات.

وقد عد الله (تعالى) الحرب جهاداً في سبيله، إذا كانت من أجل إعلاء كلمته، ونشر رسالته، ومن أجل رد الظلم والحيف عن المستضعفين المظلومين، أياً كانت هويتهم، ولاسيما المؤمنين منهم، أمراً واجباً وشيئاً مسوغاً، لا يكمل إيمان المرء وإسلامه إلا به، فقد روي عن الرسول (ص) أنه قال: (من مات ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق)[١].

والآيات الداعية إلى الجهاد، الحاضة على القتال في سبيل الله أكثر من أن تعد: (وجاهدوا في سبيل اله حق جهاده، هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم)[٢].

(فإذا ألقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما مناً بعدُ، وإما فداءً، حتى تضع الحرب أوزارها)[٣].

---

١ ـ مسلم ١٩١٠.
٢ ـ الحج ٧٨.
٣ ـ محمد ـ ٤.

(انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله..)[1].

وحرم الله الاعتداء على المسالمين، والمهادنين، والمعاهدين.. وجعل الحرب آخر الوسائل بعد الخيارات الأخرى والحلول السلمية، كالكي آخر الأدوية!. وقد عرض الشاعر أحمد شوقي، للحرب ومعناها في الإسلام، فقال:

الحـرب فـي حـق، لـديك، شـريعة

ومـــن الســـموم الناقعـــات دواءُ!

فقد جعل الحرب، في سبيل الحق والخير، شريعةً، يلجأ إليها الرسول (ص) أو من يقوم مقامه من أولي الأمر، لمعالجة بعض الأمراض الإنسانية المزمنة المستعصية، بعد أن أعيت جميع الوسائل الأخرى فالحرب، إذاً كالسموم القاتلة، التي قد يلجأ إليها الطبيب لمداواة المرضى المصابين بأمراض مستعصية.

وبعد هذه الجولة، في بيان الحروب والنزاعات وأسبابها، لا أرى من دواء أنجع، وحل أنفع وأحسم من تغليب العقل والحكمة والحق والخير، على الهوى والطيش والضلال والباطل والشر.. في كل صراع ونزاع تطل بوادره، وتلوح في الأفق أشراطه ونذره، والأفضل والأحكم والأعقل تحكيم آيات الله المحكمات، وصحاح أقوال وأفعال الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في بدء كل خلاف ونزاع وفتنة قبل التفاقم والاستفحال: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بعت إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون..)[2].

وإذا كان تعدد ألوان الناس وألسنتهم من آيات الله، وكانت لله إرادة وحكمة في جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا بينهم، ويتعاملوا . كما تشير الآيات الكريمة . فمن الخير والحكمة والعقل أن يتعايشوا ويتساكنوا بأمن وسلام ويتعاونوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان[3]، فأينما كان هذا، ومتى كان، فثم إرادة الله ورضاه ومباركته، وإينما كان خلافه، فهنالك معصية الله وسخطه ولعنته، وبالتالي نُذُره وعقابه..

IV . الكوارث الطبيعية:

قلت من قبل: إن الكوارث الطبيعية، بعضها ينزلها الله (تعالى، بالبشر عقاباً وقصاصاً لهم، وبعضها ينزلها زجراً وردعاً، وتخويفاً وتأديباً، وحملاً على الصلاح والإصلاح، وبعضها أنما هو نم نواميس هذا الكون، سفن الطبيعة، وتبدو . لغير المتفكر . كأنها صدف تخبط خبط عشواء وتنزل بالجميع بلا تمييز ويمكن أن نجمل . مما تقدم . أسباب الكوارث الطبيعية في نوعين:

أ . نوع يعود إلى الإله رب العالمين.

---

[1] ـ التوبة ٤١.

[2] ـ الحجرات ٩ ـ ١٠.

[3] ـ (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم). الحجرات ١٣.

ب . ونوع يعود إلى نواميس الكون وسنن الطبيعة.

وبدهي أن علاج النوع الأول، يكمن في تلمس إرادة الله (عز وجل) ورضوانه، واتباع شريعته وأحكامه، في كتبه المنزلة، وسنن رسله الصحيحة، ولما كان القرآن آخر هذه الكتب، جامعاً لخيرها وفضائلها، وكان محمد (ص) خاتم الرسل، وجامع مكارمهم، فإنه يتعين على البشر اعتماد هذين السبيلين، القرآن الكريم والسنة، في معرفة شريعة الله وإرادته وحكمته، ومرضاته.. فإن لم يكفيا، نعمد إلى ما يمليه العقل السليم والمنطق السليم، والعلم ومناهجه وأحكامه ومعارفه.. ويكمن، أيضاً، في التوبة النصوح، والرجوع عن الأخطاء والآثام والمعاصي والتكفير عن الذنوب، بما يبينه الكتاب والسنة، وفي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبذلك النصيحة، والتوجيه والإرشاد، وفي الاعتدال والاستقامة ولزوم الحق والعدل.

وبدهي . كذلك . أن يكون علاج النوع الثاني، إنما يكون بتحصيل مزيد من العلم بأسرار الكون، وآيات الله، ومعرفة نواميس الطبيعة وحقائقها، وقوانينها الثابتة وكذلك الظواهر المختلفة، وأسبابها وعللها.. وذلك لكي يتجنب الناس الوقوع في أشراكها، ومحاذيرها ومهالكها، فإذا عرف البشر، أن هذه المنطقة أو تلك، هي بؤرة زلازل أو براكين.. معرفةً مؤكدةً أو عرفوا أن الطواعين والأمراض والأوبئة منشؤها: كيت وذيت، من العلل والأسباب استطاعوا أن يأخذوا حيطتهم وحذرهم، وأن يبتعدوا عن مواطن التهلكة ويتجنبوا الأوبئة، أو يمنعوا وقوع تلك الأسباب المؤدية إلى هذه المهالك والكوارث والأدواء.

وقد يكون الأمر . أحياناً . متعلقاً بالعناد والمكابرة وليس بجهل تلك القوانين والنواميس والظواهر، فتقع الكارثة على الجاهلين والمعاندين وعلى الصالحين والطالحين جميعاً فينبغي علاج العناد والإصرار على ارتكاب الخطأ، كمعالجة الجهل، وذلك بالإقلاع عنه، واتباع سبيل الحق، والعلم والعقل، حيثما وكيفما ومتى لزم الأمر، والتحرر من الأوهام والخرافات والترهات والأباطيل.. ومن الناس من يحسب أن الكوارث، بجميع أنواعها، إنما هي قضاء وقدر من الله، محتومان لا مفر منهما، ولا محيص عنهما، ويوجهون تفسير بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، هذه الوجهة، ويعتقدون أن ذلك من صلب الدين، والإيمان! والذي أراه . والله (تعالى) أعلم . أنهم ليسوا على شيء. وأن بعض المصائب والمحن! إنما يقدرها الله، وبقضي بإنزالها على مستحقها نتيجة أعمال سيئة وارتكبوها، فلو لم يرتكبوا شيئاً لما وقع بهم شيء!.

وأن بعضها الآخر، إنما يقع على من يقع عليهم، بسبب جهلهم وعنادهم وتفريطهم وإفراطهم، وليس لله دخل فيه إلا من حيث كونه الخالق للطبيعة والكون، وما يتصل بهما من قوانين وسنن ونواقيس ولله في ذلك الحرية المطلقة، يفعل ما يريد.

١- فقد يريد أن يتدخل، فيتدخل رحمة وعطفاً ولطفاً ولأسباب يقدرها ويراها هو (سبحانه وتعالى).

٢- وقد لا يريد، فلا يتدخل، لأسباب يراها ويقدرها . أيضاً ت هو وحده (سبحانه)، فيمضي كل شيء في سنته وطبيعته وناموسه.

وهو سبحانه إذا تدخل، بالنسبة لبعض البشر المصطفين، كالرسل والأنبياء والأولياء، بخرق تلك السنن والقوانين، التي خلقها هو (جل وعلا)، فلكي يصنع لهم معجزات وخوارق، يستخدمونها براهين وأدلة دامغة على صدق نبواتهم ورسالاتهم وأقوالهم.. وليجعل ذلك لهم كرامة ورفعة وفضلاً.

التصعلك

Le pillage. Ou Le brigandage

وصف وفرز: في المعجم: تصعلك: افتقر، والصّعلوك: الفقير، والضعيف، وجمعه صعاليك وصعالِك. وصعاليك العرب: لصوصهم وذؤبانهم وفقراؤهم، والشعراء الصعاليك في الجاهلية، هم طائفة من الشعراء هجروا أقوامهم أو قبائلهم، وخرجوا عن ولائهم القبلي والبيئي إلى المجاهل والبوادي، لا ينفكون عن الغزو والإغارة والعيش على ما يغتنمون. والإنفاق على بعض من بليهم من الفقراء والمعوزين..

وأرى أن ظاهرة التصعلك في هذا العصر، ما تزال مستمرة في أكثر صورها ومظاهرها، بل يمكن أن نعتبر بعض المظاهر الأخرى كالتسكع و(التبهلل)، والتمسكن، والتزهو و(الدروشة) فروعاً لتلك والظاهرة.

فمازلنا نرى. ولاسيما في المغرب. فئة تعيش على السطو ومداهمة البيوت والدور، أو السيارات أو أصحابها خاصة في الساعات المتأخرة من الليل، إذ تضعف الحراسة، أو تنعدم وتصعب المراقبة، وينام أكثر الساهرين على الأمن، وقد سمعنا من ذلك ما يشبه الحكايات والأساطير في ألف ليلة وليلة!.

أقول. بل لقد هاجمني: أحدهم مرة بسكينه، بعد منتصف ليلة من ليالي رمضان عام ١٩٨١، وأنا عائد من الرباط إلى تمارة وقد كنت واقفاً بسيارتي أعالج أمراً طرأ فيها، وأخذ يلوّح بها في وجهي، تحت جنح الظلام، آمراً أن أسلمه ما أملك من نقود، ولحسن الحظ لم يصبني إلا بثلاث طعنات سطحيات، هذا وإن فئة منهم فتحت باب سيارتي. ذات يوم. في طنجة ليلاً وسرقت ما فيها من ملابس وكتب ومسجلة وكاميرا..

رغم تلسيمها إلى العسّاس لحراستها مع السيارات الأخرى، ولما ذهبت إلى مركز الأمن للشكوى، وجدته غاصاً بالشكاة، عن أحداث أشد هولاً، وأكثر فداحة ورعباً ومرارة.. كان أحد السياح التونسيين. مثلاً. يصرخ بمرارة وحرقة: لقد نزلوا بي ضرباً ولكماً، وسلبوني محفظتي، وفيها أربعون أو ستون ألف دينار.

. وفي رأس سنة ١٩٧٨، رأيت بعيني، أحدهم يفتح سيارة أحد أصدقائي الأساتذة، ويجمع ما فيها من أشياء، وكنت عابراً من هناك صدفة، فلما رآني قادماً نحوه، فر هارباً، لا يلوي على شيء!.

ـ وحدثني أستاذ زميل: أنه خرج وامرأته ذات ليلة، من سهرة عند أحد معارفه، فلما وصلا إلى الساحة المظلمة تقدم شخص ملثم منهما، واختطف المحفظة من يد المرأة، وولى هارباً في الظلام!.

هذا غيض من فيض، وهو دليل ساطع على استمرار هذه الظاهرة في عصرنا.

. وقد فاتني أن أذكر. كذلك. أنني ذات يوم، شاهدت، بأم عيني أحدهم ينهب تلك الشقق والفيلات القائمة على شاطئ البحر، قرب الجديدة في القرية المسماة، (سيدي بوزيد) فلما رآني عابراً خنس، واختفى في أحد المسارب.

ـ ورأيت أحدهم يبيع، في السوق، أدوات صيد حديثة ثمينة، على أنه مالكها، وإذا برجال من الشرطة السرية يكتشفون. بأدلتهم. أنه سارقها بالدليل القاطع ويقبضون عليه معترفاً لهم بالسرقة!.

وقد قرأت في إحدى الصحف المغربية المحترمة، أن فئة من هؤلاء، سطوا على جمعية للفن والموسيقا وسرقوا كل الآلات الموسيقية وبعض الأثاث..!.

. ومازلنا نسمع . أيضاً . أن بعض هؤلاء، يهاجمون النساء والفتيات في الأماكن البعيدة المنعزلة، أو في ساعات حلول الظلام، يسلبونهن حليهن أو ما معهن من النقود والأشياء الثمينة وقد يتعدى الأمر كثيراً إلى اغتصابهن.. وقد يقتلون الضحية إذا خيف منها الشكوى إلى سلطات الأمن.

. حدثتني إحداهن بأن التي تقع في أيديهم، يشدونها عنوة، ويضربونها، ويهددونها، ويخيفونها، ثم يأخذون منها ما يجدونه معها، أو يفسقون بها جميعاً بالتناوب! وإنا تكون محظوظة كثيراً، إذا هم أرسلوها، بعد ذلك، حية سالمة.

أما المتسكعون، والبهاليل . بالمعنى العامي . والدراويش، والمتمسكنون، المتزهدون.. فإنهم . في المغرب . كثرة تحير الغرباء والزائرين وهم . لكثرتهم وتواجدهم . في كل قرية ومدينة . صاروا، في نظر أبناء البلاد شيئاً عادياً مألوفاً! فقلما تخلو منهم عرصة، أو ساحة، أو شارع أو سوق، أو زقاق أو غير ذلك مما يضطرب فيه الناس ويزدحمون.. فمنهم جماعة رأيتها بالجديدة، تطوف على البيوت في الأحياء، ومعهم ناقة صغيرة قد زركشوها وزينوها، وحملوا بأيديهم الدفوف وغيرها من آلات الموسيقا والإيقاع، فإذا وقفوا أمام هذه الدار أو تلك، ضربوا آلاتهم، ورددوا أدعية وصلوات وكلمات يحفظونها، وقاموا بحركات معينة، ومازالوا كذلك، حتى يخرج إليهم بعض من في الدار، ويتجمهر الناس.. فيعطيهم صاحب الدار، وبعض من حضر.. ما تيسر من الأغذية، كالسكر أو الدقيق وبعض الزيت أو الخبز.. ومن الريالات والدراهم، ثم يمضون إلى دار أخرى، وهكذا..

ومنهم . أيضاً . فرقة دينية متزهدة متصوفة، تعيش على نفقة الموسرين في الأحياء، فتنصب كل ليلة، خيمتها أمام دار أحدهم، وتمدد سلكاً كهربائياً، منها إلى الخيمة للإنارة، وصاحب الدار مكلف، أو يعدُّ نفسه مكلفاً عرفاً . في تلك الليلة أو اليوم . بتقديم الطعام والأتاي (أي الشاي) وشيء من الحلوى أو الفاكهة، وغالباً ما يكون الطعام أكلة، أو طبقاً مشهوراً في المغرب، اسمه (الكُسكُسُ).

ومع تصرم النهار، وقدوم الظلام يجتمعون في الخيمة، يتذاكرون، فإذا حضرت الصلاة، صلوا جماعة، ثم أخذوا في الذكر والأدعية والصلوات على النبي (ص) حتى إذا جاء صاحب الدار . المضيف بالإكراه . بصحن كبير مصنوع من الفخار، عارم بتلك الأكلة وقبل ذلك الأتاي قد دارت على الحاضرين، أثناء الذكر.. والدعاء والصلاة التفوا حول السفرة، وجعلوا يأكلون بأيديهم . لأن هذه الأكلة، تؤكل بالأيدي، حسب الأصول لا بالملاعق!.

وفي الليلة التالية، ينتقلون ليخيموا أمام دار محسن أو جواد آخر.. وهكذا دواليك!.

ومنهم جماعة متزهدة، تتبع أحد الأولياء، وتنطلق وتنطق باسمه.. رأيتهم يجلسون بالمدينة على الرصيف، ومعهم بعض الأدوات يوقعون عليها، ويرددون كلاماً لم أفهمه، ويستجدون المارة.. فإذا ما ملوا مجلسهم، أو استوفوا حظهم منه، انتقلوا إلى مجلس آخر، وهكذا..

ومنهم الثنائيون، الذين يتجولون في الأحياء والأزقة: اثنين اثنين، أحدهما يضرب على دف (بندير) والآخر يعزف على ربابة أو شبهها، أو ناي أو عود صغير ونحوه، ويرددون أدعية وأغاني شعبية، وما إلى ذلك، ويطلبون المعونة والصدقة..

ومنهم المتزهدون أو المتصوفون الذين يجلسون إلى القبور أو أضرحة الأولياء والصالحين، يتعيشون مما يصل إلى أيديهم من صدقات المحسنين والمحسنات، اللائي والذين لا ينفكون يزورونها تبركاً، وزلفى، وقضاء للحاجات المختلفة، وتوسلاً إلى الله في التوبة والقبول!.

وأما الدراويش والبهاليل . بالمعنى العامي لهذه الكلمة . فقد رأيت منهم عدداً غير قليل، في المدن والقرى والنواحي.. وعجبت من أمرهم، وفلسفتهم للحياة! ترى أحدهم يفترش مكاناً في الأرض مكشوفاً، على رصيف أو قرب فناء دار، أو حديقة، يقيم فيه شهراً، أو شهوراً، وحوله ومعه وسائل طعامه وشرابه ومنامه.. البسطة البدائية الموسخة، والمسخمة، وعليه أسماله البالية يلتف بها، وتعمره وإياها القذارة والوعثاء والشعث.. ويعلوه الضعف والبلاء والشقاء والحرمان، ومع ذلك قلما يلتفت إلى الناس يسألهم أو ينظر إلى حالهم، وإنما تراه، غالباً مشغولاً بحاله يُصلح شيئاً، أو يمسح، أو يرفو، أو يطبخ أو يتفلى.. إلخ وإنما الناس هم الذين يلتفتون إليه، وينشغلون به، ويتعجبون منه، وتجود عليه أيديهم، بما يتيسر لها.

ومن المساكين أو المتمسكين أفراد عجيب أمرهم، لا يسألون الناس، وإنما يقصدون عموماً دوراً معينة لبعض الميسورين المحسنين، حيث يطرق أحدهم الباب، ويجلس متقوقعاً على نفسه منتظراً بصمت وهدوء، فيناوله أهل الدار وجبته الغذائية المعتادة، وشرابه من الأتي أو غيره، فإذا طعم وشرب وروي رد الأواني الفارغة إلى أهل الدار شاركاً متحمداً، وانصرف للوجبة التالية.

أما المتسكعون في الشوارع والطرقات والأزقة والساحات فما أكثرهم! معظمهم من الفتيان والشباب العاطلين أو المتعطلين، ومن الطلبة الفاشلين، ومن المشردين والمتشردين والمتمردين على أسرهم وآبائهم.. ومن السكارى والحشاشين والمدمنين، ومن قطاع الطرق والمجرمين والمنحرفين.. الذين يتسكعون في النهار، وينشطون وينغمسون في جرائمهم وانحرافاتهم بالليل.

ورأيت، ذات يوم، جماعة من المتصعلكين أو الدراويش يضربون خيمتهم في أحد الأحياء بالجديدة، ثم يجتمعون أمام هذه الخيمة، يدقّون ويرقصون، مرددين كلاماً لم أفهم إلا بعضه، فإذا ما كثر الناس حولهم اشتد نشاطهم في الدق والتوقيع والرقص، وأخذ أحدهم زجاجة، فحطمها على الأرض، وأخذ يرقص على حطامها حافياً! دون أن يسيل من قدميه قطرة من دم! ودون إظهار أي حرج أو توجع من الوطء بقدميه على ذاك الحطام، يحاول زيادة تحطيمه وتفتيته بينما يأخذ رفاقه بالصياح والتهليل للمهارة والمعجزة! فإذا ما فرغوا، طاف أحدهم على المتجمهرين، بلقنسوة أو وعاء يطلب الأجر والإحسان..

وفي الرباط، رأيت جماعة من المتزيين بأزياء الشيوخ والفقهاء، يجلسون إلى ضريح ولي مشهور عندهم، وبين يدي كل منهم ريش لكتابة، ومداد وأوراق وكتب قديمة صفراء، وشبحات وغير ذلك وغير ذلك، يستدعون إليهم المارة.. وقيل لي أن لهم زبائنهم وقُصّادهم من الجنسين، يحسبون الفأل لهم،

ويقرؤون لهم مستقبلهم وطالعهم، ويكتبون لهم الحجب والأحراز، ويرشدونهم إلى الحلول والأدوية المناسبة. بزعمهم. بالحقائق المسلمة، لمشاكلهم وأمراضهم.. إلخ، مما يختلط فيه السحر والشعوذة والدين بالكذب والتدجيل، والطب والحكمة بالخرافة والجهل وابتزازاً وطلباً للمال.

الأسباب

أ. البطالة: وقد سبق الحديث عن هذا السبب مستفيضاً عند بحث أسباب التسول، فليرجع إليه من أراد.

ب. التدين الخاطئ:

إن كثيراً من الناس المحسوبين مسلمين مؤمنين، أو يحسبون أنفسهم كذلك، قد فهموا الدين الإسلامي فهماً خاطئاً، أو مشوهاً، أو ناقصاً، أو منحرفاً... فهو عند أغلبهم مجموعة عبادات جسدية، ومفاهيم مجردة، وطقوس خاوية.. ليس إلا!.

ومنهم فئة فهمت الدين على أنه مجموعة قيم وأفكار رجعية بالية، فناصبوه البغضاء والعداء، وأقاموا، في أنفسهم، حواجز دون مكارمه وفضائله.. ومنهم فئة جاهلة، لا تعرف من الدين كوعه من بوعه، وإلا أسماء وهياكل عظيمة، وقشور جافة..

والتدين الخاطئ ناجم. في نظري. أولاً. عن أخذ الدين عن الآباء، بالوراثة والتقليد الأعمى، وعدم الرجوع إلى الينابيع الأساسية الأصيلة، وهي: القرآن وما يتبعه من تفاسير وعلوم، والسنة النبوية بكتبها الصحيحة الثابتة، وتفسيراتها وعلومها، وإلى العلماء الفقهاء الثقات المتبحرين في أصناف من العلوم، بالإضافة إلى علوم الدين.

وناجم كذلك ثانياً. عن أخذ الدين من أفواه الجهلة وأرباع المثقفين والمتفقهين والمدعين للعلم، وما أكثرهم في البلاد العربية، والإسلامية، ومما يقوله ويذيعه الأعداء المتربصون.. وناجم ثالثاً. عن القصور العقلي، والقلق النفسي، والفتور الروحي، والضعف والانحطاط الطموحي والعزمي.. وسوء الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي عامة.

ج. الجهل والأمية:

بالرغم من الجهود التي تبذلها الحكومات المتعاقبة لنشر العلم والثقافة، ومحاربة الجهل والأمية.. فمازالت هذه الجهود، أقل بكثير من المستوى اللائق المطلوب، إذ ترى أن هذه الجهل، وتلك الأمية، بقيا قعيدين مع قرينين آخرين هما: المرض والبؤس، في السواء الأعظم من أبناء هذه الشعوب، ويا للأسف، وسوء الحظ، و عيب الشؤم!!.

وإذا كانت الأمية تشكل في بلادنا هذه حوالي ستين بالمئة، فإن الجهل يفوق هذه النسبة أشواطاً بعيدة لأنه ليس التحرر من الأمية تحرراً من الجهل، وإنما هو أول الطريق إلى العلم والاستنارة.

وأقبح الجهل وأرذله، هو الجهل بالدين، لأن الدين الإسلامي مرادف للحياة بكل معانيها، وفهمه فهم لهذه الحياة جسدياً وروحياً.. ومنطلق وحافز إلى فهم المعارف والعلوم الأخرى، وتقديرها حق قدرها، ووضعها في موضعها اللائق والمناسب.

د . إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وذلك من قبل المسؤولين والمشرفين والرعاة.. إذ لو قامت وسائل الإعلام المختلفة، من إذاعة وتلفزيون وصحافة وغيرها بواجب التوعية وقام الأساتذة والمعلمون المربون، وخطباء المساجد والمحافل ومن إليهم، بواجب التبصير والنصح والتنوير والهداية إلى كل خير ومعروف، والتنفير من كل ما هو شائن ومنكر وشر.. وترك الحبل على الظاهرة وغيرها من أثر فالتسبب، وترك الحبل على الغارب، واللامبالاة.. هي السمات التي أصبحت تطبع معظم النفوس، وأوجه الحياة ونشاطاتها، وإلى هذه العلة، ينبغي توجيه العلاج، وصب العناية والاهتمام، إذا أردنا الحياة كريمة عزيزة شريفة.. كما أرادها الله (تعالى) لنا.

النتائج والعواقب

لا ريب أن عواقب تلك الظاهرة: ظاهرة التصعلك، وما يتبعها من فروع، كالتسكع والدروشة، والتزهد، والتمسكن وخيمة، ونتائجها خطيرة، على الأفراد، والمجتمعات التي تحضن أولئك الأفراد، ونلخص . فيما يلي . أهم وأبرز هذه النتائج:

A . إفساد أمن البلاد والعباد:

والواقع أن أكثر ما قلناه قبل، بشأن نتائج وعواقب التسول والتشرد، يصدق هنا، ويصلح أن يقال مثله في هذا الباب، الذي نحن بصدده الآن، بالإضافة إلى أن التصعلك وفروعه، تؤدي إلى ضياع الأمن، في المجتمع، وانتشار الرعب والفوضى والخوف على الأرواح والممتلكات والأرزاق.. بسبب انتشار السُّراق والنهَبَة وقطاع الطرق والسكارى والحشاشين والمعربدين والنشالين.

B . احتمال تحول قسم كبير منهم إلى مجرمين و منحرفين خطرين.. فلا أحد يضمن أن يبقى المتزهد، أو المتسكع، أو الدرويش، على حاله . كما هو . إنما يتحول كل من هؤلاء فجأة في ساعة من الساعات إلى مجرم، أو منحرف يعيث في الأرض فساداً والعباد.. مادام بحاجة إلى المال، الذي هو بأيدي الآخرين، ومادامت حاجاته تتزايد وتتسع، وتلحُّ في الصراح والضغط عليه.

C . قتل الكرامة والضمير الإنساني:

ففي التصعلك والتمسكن والتزهد والدروشة.. قتل للكرامة، وإهانة للمروءة، وتحقير وتحطيم للضمير، في شخوص هؤلاء وتعويد على المذلة والهوان، وحمل على الرضا بالدنايا، وارتكاب الخطايا، وتربية لهم على معاداة المجتمع، والكيد للناس، ومجافاة السواء القويم، والصراط المستقيم، وكراهية الحق والنظام، والإنتاج والعمل.

D . حرمان الوطن والأمة من طاقات هائلة:

لاشك أن في اعتزال هؤلاء العناصر، من متصعلكين ومتزهدين ومتصوفين ودراويش وبهاليل ومتسكعين، العمل المنتج، والسعي المعطاء.. حرماناً للوطن ومجموع الأمة، من طاقة هائلة، وخير وفير، وإنهاكاً وإضعافاً للقوة الاقتصادية وبالتالي، عرقلة وتأخيراً عن بلوغ الأهداف وتحقيق المرامي..

وليت شعري، لماذا نغفل أو نتغافل عن معالجة مثل هذه الظواهر المرضية، مع أننا ندرك أنها من المسائل الحيوية الملحة، ويحضنا الدين الحنيف والخلق القويم والإحساس الإنساني النبيل على المبادرة إلى العلاج الناجح، والحل الحاسم.

E . تشويه سمعة البلاد والإساءة إلى الوطن والدين وأهله:

فطبيعي أن يكون وجود هؤلاء الشذاذ والمحرومين والمنبوذين والمنحرفين والعالة.. وصمة عار على جبين المجتمع الذي ينتمون إليه، وبؤرة مفاسد وقلاقل ومشاكل، تشوه سمعة البلاد، ونقطة ضعف، ونذير شؤم على الوطن والدين وأهله وذريعة للأعداء، ينفذون منها للطعن عليه، وعلى معتنقيه. وسبباً لنزول النقمة واللعنة والبلاء من رب السماء!.

العلاج أو الحلول المقترحة

I . علاج البطالة: قد سبق الكلام عن البطالة وعلاجها عند الحديث عن ظاهرة التسول.

II . علاج مشكلة التدين الخاطئ: قد أشرنا إلى علاج هذه المشكلة عرَضَاً، وبشكل خاطف، عند التحدث عن التدين الخاطئ سبباً من أسباب التصعلك وفروعه، ويجدر بنا الآن، الوقوف . بشيء من التفصيل . عند هذا الموضوع.

ذكرنا أن التدين الخاطئ ناتج عن عدة أسباب، منها:

. أخذ الدين عن الآباء بالوراثة والتقليد الأعمى.

. وأخذه عن الجهلة وأرباع المثقفين والمدعين للعمل وأشباههم..

. وأخذه من أفواه وكتابات الأعداء والحاقدين والمتربصين والضالين ونظرائهم.

وعلاج ذلك كله الرجوع إلى النبعين الأصيلين، الصافيين والأبديين، كتاب الله، وسنة نبيه، أما كتاب الله . القرآن الكريم . فمما لاشك فيه، أنه وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تنوول بالبحث والدراسة عبر آلاف، بل ملايين الكتب والمجلدات . من النواحي ا لمختلفة . إلا أنه، من الضروري جداً، والمفيد جداً أيضاً عمل الأمور التالية:

أ . تحديد الناسخ والمنسوخ من الآيات والأحاديث تحديداً قطعياً، لا لبس فيه ولا غموض، بالاستناد إلى تواريخ النزول، والصدور وأسبابهما.

ب . استنباط الأحكام القطعية وتحديدها وفرز الترجيحية والاحتمالية.

ج . التقريب أو الدمج أو التوحيد لكل المذاهب الأربعة أو الخمسة أو إجراء التبسيط والتسهيل لكافة تلك الدراسات والبحوث، وجعلها في متناول الصغير والكبير من أبناء الأمة، وقريبة من مدارك وعقول الجميع.

د . ولا يتم ذلك إلا بعد دراسةٍ جديدة وغربلة شاملة للأحاديث المختلفة، وإعادة تقويمها وتصفيتها وتنقيتها، على ضوء أحكام القرآن القطعية الثابتة، وعلى محك أحكام العقل والمنطق والتجربة العلمية، والخبرة التاريخية، وحينما نتم ذلك، على الوجه الصحيح الأكمل، سيكون بين أيدينا إلى جانب كتاب الله (عز وجل) وكتاب سنة رسوله، (صلى الله عليه وسلم) . التي ينبغي أن تُجمع في كتاب واحد فقط . كتاب ثالث يربط بين الكتابين، ويجمع أحكام الدين جميعاً، أو صورة الشريعة الإسلامية كاملة واضحة منيرة.

قد يقول قائل: لكن هذا العمل يحتاج على زمن طويل، ونحن نريد البدء بتصحيح التدين الخاطئ منذ الآن، فما السبيل؟

ورداً على مثل هذا السؤال أقول:

لابد لكل متعلم ومثقف من معاودة الرجوع إلى القرآن الكريم وكتب السنة . مراراً وتكراراً . وكلما سمحت له الظروف، ومزاولة الفهم وإعمال العقل، وإجراء الموازنة بين ما في هذين النبعين، وما كتبه العلماء والفقهاء وأصحاب المذاهب، لاستخلاص الحقائق والثوابت، وتصحيح المفاهيم الغالطة وإزالة الأوهام والأباطيل والترهات العالقة.. ريثما يتم ذلك ولابد . كذلك . من الرجوع إلى العلماء المختصين الثقات وأهل الدراية والخبرة والنوايا الحسنة، لسؤالهم واستفسارهم واستشارتهم والأخذ عنهم.. ويتعين ذلك خاصة، على الضعيف المعرفة، وقليل الزاد من العلم والثقافة، وعلى أولئك الذين لا يملكون حيلة ولا وسيلة، لمتابعة العلم والدراسة، وملازمة أهلهما، والاختلاف إلى مظانهما، كسكان الصحاري والبوادي والأرياف النائية، ومما لا ريب فيه، أن قيام الفئة المتفقهة المتعلمة، بواجباتها، في التوعية والتنوير، وتمثيل الدين للفئات الأخرى، عملاً وعلماً وأخلاقاً ومعاملة.. من أحسن العوامل المساعدة على نشر التدين الصحيح وتصحيح الخطأ، أو إلغاء الفاسد.

أضف إلى ذلك، الجهود التي ينبغي أن تُبذل في مجال محاربة الجهل والأمية.. وذلك من قبل الحكومات والأفراد جميعاً.

III . علاج الجهل والأمية:

في تصوري، إن علاج مشكلة الجهل والأمية، لابد أن يمر في مرحلتين:

الأولى: علاج الأمية، ويتأتى ذلك بفرض التعليم الإجباري المجاني، على كل أمي وأمية حتى نهاية المرحلة الإعدادية . على الأقل . على أن تسبقه حملة توعية وتشجيع مناسبة، وتجند لذلك جميع الأجهزة في الدولة، مع تسخير جميع الطاقات المتاحة للشعب أو الأمة ولا يجوز أن يُهمل، أو يعفى من هذا البرنامج التعليمي الثقافي، قاص ولا دان، ولا صغير ولا كبير، ذكراً كان أم أنثى.. ولابد . من أجل ذلك . من توفير الكتب المجانية وغيرها، وفتح مراكز في الصحاري والبوادي والأرياف، وكل الأماكن النائية، وتوفير المربين والأساتذة والإداريين وغيرهم..

الثانية: علاج الجهل، ويكون بتعميم التعليم الثانوي والجامعي، وفتح عديد من المعاهد والمراكز الثقافية والمكتبات العامة، وإعداد وتجهيز كافة المساجد والزوايا وما إليها.. لتكون مراكز تعليم وتثقيف

فإشعاع وتربية حتى السجون والمعتقلات.. يجب أن تغدو أماكن تربية وتعليم وتثقيف وإشعاع، ولابد من إيلاء الجنود والفلاحين والعمال، والبدو الرحل، حتى الغجر.. العناية والاهتمام، في هذا الصدد، وذلك باستعمال المراكز الثقافية المتنقلة، والوسائل المحمولة والأطر المختصة.

IV . علاج مشكلة التفريط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال تعالى: (كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله..)[1].

إنني أعتقد . وهذا مجرد رأي شخصي . أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتآزر والتناصح.. طبيعة المؤمن وسجيته، عندما يصح دينه، وتصلح عقيدته، يعالج بالعمل جهله.. وما يقال عن المؤمن المسلم، يصدق ويصح أن يقال عن الأمة المؤمنة المسلمة.

وأرى أن هذه الأمة الإسلامية، وما يمكن أن يسير في ركابها، ويتبعها من الأمم التي سيستهويها ويبهرها الإسلام، لا يمكن أن تكون إلا بارةً وفيةً، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، مؤمنة بالله، لأن قوله تعالى: (كنتم)، بصيغة الماضي، لا تنسحب على الماضي فحسب، وإنما تشمل كافة الأزمنة قياساً على قوله تعالى: (وكان الله عليماً حكيماً) إذ لا يساغ . بحال من الأحوال . أن تؤخذ (كان)[2]، على صيغتها، مقصورة على الماضي فقط.

وإن علاج المشكلات السابقة، التي أشرنا إليها قبل، قمين بأن يجعل معالجة هذه المشكلة أمراً ممكناً ميسوراً، فالعلم والثقافة والتدين الصحيح العميق. كفيل بأن يوقظ الضمائر ويشحذ الهمم، ويقوي العزائم والإرادات وينير العقول والأفهام والبصائر.

فيشعر كل فرد بمسؤوليته، أداء أمانته، والقيام بواجباته وتبعاته.. ويدفع الأمة جمعاء إلى أداء الرسالة، وتبليغ الأمانة وعمل الصالحات، والتواصي بالحق والصبر..

---

١ ـ آل عمران ١١٠.
٢ ـ النساء ١٧٠.

الطلاق

Le divorce

فرز ووصف: الطلاق: سبق أن قلنا، إن الطلاق هو فصل أو انفصال الزوجين، أحدهما عن الآخر، وهو غالباً ما يقع من جهة الرجل، لأن العصمة تكون بيده، بأن يقول لها أنت طالق، كما نعرف، وقد يقع من جهة المرأة، إذا كانت قد اشترطت، في العقد، أن تكون العصمة بيدها وبيد الرجل على حد سواء، لأن العقد شريعة المتعاقدين . كما يقال . في القانون، وقد يقضي به القاضي بناء على طلب أحد الزوجين أو كليهما، أو لأسباب أخرى.

وكلنا يعرف أن الطلاق في المرة الأولى والثانية، يجوز للزوجين فيه أن يتراجعا، ويعود إلى الحياة الزوجية من جديد، فأما في المرة الثالثة، فلا يحل لهما ذلك، إلا إذا تزوجت المرأة رجلاً آخر، ثم طلقها هذا الرجل، فيمكن للزوج الأول، عندئذ، أن يطلب يد امرأته بمهر وعقد جديدين، قال تعالى:(الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[١].

هذا ما أعرفه، على وجه الإيجاز، لا الاستقصاء والتوسع، في هذا الموضوع، ولاشك أن هناك أحكاماً كثيرة، وحالات، واختلافات في الرأي والاجتهاد.. فليرجع من يشاء إليها، في مظانها من كتب الفقه والتفسير.

وكلنا يذكر قول الرسول (عليه الصلاة والسلام)، (أبغض الحلال إلى الله الطلاق)[٢]، وقوله عز وجل: (وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)[٣].

والذي يسترعي الانتباه في المغرب خاصة، أن هذه الظاهرة تأخذ صوراً وأشكالاً عدة، وهي سائرة في طريق التكاثر والتفاقم ولتعقد، بشكل مريع ومؤسف جداً، فما أكثر ما نسمع عن المفارقين لأزواجهم والمفارقات، وما أشد ما نصادف من المطلقين والمطلَّقات، حتى كأن الطلاق أصبح (موضة) العصر! فقلما تخلو حارة أو محلة، أو حتى دار من مطلقة أو مطلق! لا، بل إن بعض الأزقة يمكن أن تحصي عدد المطلقين والمطلقات فيها بعشرة أو أكثر! وهل في ذلك غرابة! فالإذاعة . كل يوم تقريباً، في نشرتها الزوالية . تذيع علينا: أن فلانة وفلانة وفلانة.. رفعن دعوى على أزواجهن الغائبين منذ مدة، وأن القاضي أعطى مدة شهر، لهؤلاء الأزواج الغائبين، لكي يظهروا ويعودوا إلى زوجاتهم، فإذا لم يظهروا، خلال الشهر، حكم لزوجاتهم بالطلاق منهم طبقاً للقانون!!.

فإذا كان هذا هو المعلن عنه، فما بالك في المخبأ المستور؟!.

وقد يهون الأمر، ويسهل شيئاً ما إذا وقع الطلاق قبل ولادة الأولاد، وإذا أمكن للزجين، بعد الطلاق بلا أولاد، أن يتزوج كل منهما بالزوج المناسب.

---

١ ـ البقرة ٢٢٩.
٢ ـ أبو داوود وأحمد.
٣ ـ النساء ١٩.

لكن ما يقع كثيراً، هو أن يعْضُل كل من الزوجين الآخر، فلا يستطيع الزوج، أو أن تتعقد نفساهما من العلاقة الزوجية بعد الطلاق، فيعرضا عنه، أو قد يمسك الزوج عن الزواج، لأسباب اقتصادية أو نفسية أو غيرها.. فيبقى عزباً، أو راهباً!!.

وقد يستمرئ كل منهما حياة الوحدة، بلا زواج، مترهباً، زاهداً في الجنس الآخر، أو متنقلاً من مرتع إلى مرتع ومن طعام إلى طعام!.

والخطب، كل الخطب، يقع على الأولاد البراء المساكين، الذين تتصدع أسرهم، ويتمزق شملهم بالطلاق، فيكونون عرضة للتشرد والتسول، والضياع، والعقد النفسية، والانحراف السلوكي.. ولا يسلم من هذا المصير المشؤوم، إلا من رحم ربك، من القلة القليلة ذات الحظ العظيم!.

ومن الناس من يخشى الزواج! أو يتجنبه خشية هذه الجناية على الأولاد، كما فعل المعري قديماً، إذا اعتبر الزواج نفسه جناية، فقال:

هذا جناه أبي عليّ . وما جنيت على أحد! وكما يفعل في هذا العصر، بعض الشبان الضالين..!.

الأسباب

نحاول هنا، أن نرصد أهم وأبرز أسباب الطلاق، تاركين . لمن يشاء . أن يبحث، ويستنبط أسباباً أخرى قد يجدها، وفيما يلي هذه الأسباب:

أ . حب الحرية والانطلاق:

بالرغم من أن الإنسان اجتماعي بطبعه . كما قيل . إلا أنه مفطور على حب الحرية والانطلاق، ميال إلى الوحدة والانفراد، ولو ساعة من نهار أو ليل، يراجع فيها ويتأمل ويستبطن ذاته.. وربما كان هذا الميل ناتجاً عن كون الإنسان يولد وحده، ويتألم وحده، ويمرض ويموت وحده.. بالرغم من أن جميع بني جنسه يشاركونه في ذلك! وحب الحرية والانطلاق من القيود والحدود، والمسؤوليات والتبعات، من ألزم مشاعر المرء الفطرية، ولما كان الزواج يضيف، على المرء، قدراً جديداً من هذه الحدود والقيود والمسؤوليات التي يفرضها عليه المجتمع، فإنه . أي الزواج . سرعان ما يؤول إلى الانفراط والانحلال، إذا لم يكن مبنياً على أسس متينة، ومصالح مشتركة، ولم ترفرف عليه أجنحة السكينة والرحمة والمودة.. وإذا لم يستطع الزوجان أن يحققا قدراً من التوازن المطلوب، بين الحرية والالتزام، بين الانطلاق من القيود، والانقياد للمسؤوليات الجديدة أو إذا لم يرض أحد الشريكين، بأن يكون مغلوباً، أو ???????? طائعاً مختاراً!.

ب . التشوق إلى التغيير والتجريب:

قد يكون الدافع إلى الطلاق أو الفراق . أحياناً . الملل من التكرار والرتابة، والتشوق إلى التغيير والتجريب .. فالمكرور مملول، والممنوع مرغوب، قال الشاعر:

منــع شــيئاً فــأكثرت الولــوع بــه،

وحــبُّ شــيءٍ إلــى الإنسـان مــا مُنعـا

ولاسيما حينما يصاب الزوجان أو أحدهما بالبرود الجنسي، ولا يستطيع الآخر معالجته أو التكيف معه.

ولنكن صرحاء، في هذا الموضوع الخطير، الذي يتحرج أكثر الناس من الخوض فيه، وقول الحق.. فأغلب خلق الله، من بني آدم، لا يصبرون على طعام واحد! والرجال أقل صبراً في ذلك من النساء! لذلك أبيح التعدد للرجل، ولم يبح للمرأة، وقد يكون، هناك أسباب أخرى وجيهة، تتعلق بالطفل المولود، والنسب، والحياة الاجتماعية.. وإذا كان التعدد: تعدد الزوجات، أو العشيقات، أمراً واقعاً لا محالة، فإن تعدد الحليلات . أي الزوجات . خير وأسلم عاقبة من تعدد الخليلات..

والمرأة التي هي من هذا الصنف، الذي لا يصبر على طعام واحد، إما أن تمارس التعدد خارج القفص الذهبي الزوجي، بأن تبقى حرة طليقة، لا زواج، باسم الأدب أو الفن أو غيره..

وإما أن تمارسه سراً، وهي داخل القفص الذهبي، بالفرص والمناسبات السانحة، وتحت حجج وذرائع عديدة.. وهو ما اصطلح على تسميته بالخيانة الزوجية.

وقد سمعنا، كثيراً عن تلك المجتمعات المتحضرة التي تشيع في أوساطها أمور، تنظر إليها بكثير من العجب والاستهجان، ونكاد لا نصدقها أحياناً، مثل تبادل الزوجات، والزواج التجريبي، وغير ذلك فمن خلال هذا التبادل، يتم لكل من المرأة والرجل، التعدد بموافقتهما وإرادتهما . كما ترى . وإما أن تمارسه، بالسعي لتطليق نفسها، والزواج بآخر، فهي لا تكاد تطمئن مع زوج حتى تنتقل إلى آخر.. وهكذا.. والأمثلة الشاهدة على هذا النوع كثيرة، ما ثلة للعيان.

وهناك، من الأزواج، من ارتضى أن يحل المشكلة على النحو التالي: التعامي، أو غض الطرف، أو التسامح، من أحد الزوجين نحو الآخر!.

ج . عدم الارتواء الجنسي والشبع العاطفي:

فقد يكون عدم الارتواء الجنسي، والإشباع العاطفي سبباً قوياً من أسباب الطلاق، وذلك حينما لا يكون، هناك، توافق وتجاوب وتناغم في الاتصال الجنسي، إما للفرق الكبير في السن، وإما لعيوب في الجهاز التناسلي، أو لعيوب وشوهات في الجسد، وإما لإصابة أحدهما بالعنة، أو البرود الجنسي، وإما لكراهية نشأت بينهما، وإما بسبب الجهل وقلة المعرفة بالأمور الجنسية وقد يكون، وراء ذلك، الخجل والاستحياء المفرط، أو الإجلال والاحترام الزائد، أو الخوف والوسواس، أو غير ذلك.. فإذا ما عرف السبب وعولج، مرت الأمور بسلام، وإلا فالطلاق أو التعدد، أو الصبر والعذاب، وتحمل الألم، وهذا الأخير نادر!.

د . الخلافات والنزاعات:

فقد تعصف بالأسرة ولاسيما الناشئة، رياح الخُلف والنزاع، وعواصف الشقاق والفرقة، بسبب اختلاف القيم والعادات والتقاليد الأسرية، أو اختلاف النظرة للحياة وغاياتها، أو تباين الرأي حول تربية

الأولاد، أو الغيرة المفرطة لدى أحد الزوجين أو فقر الزوج وعجزه عن تحقيق أحلام الزوجة، فتدفعهما إلى هاوية الانفصال والطلاق . بيداء التفرق والتمزق!

والباحث المتتبع . لابد . واقع على كثير من حالات الطلاق من هذا النوع.

هـ . الجهل والتدين الخاطئ:

قد يكون الدافع إلى الطلاق جهل الزوج بممارسة القوامة المفهومة، أو المشار إليها في قوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء)[1]، فيتعسف ويظلم، ويتجاهل الواجبات ويتمسك بالحقوق، حتى يضجر الزوجة، ويضيمها ويحملها على الهرب، والنفور، والسعي للطلاق..

أو جهله بطريقة معاملتها وقيادتها أو ترويضها، فقد تكون جموحاً شرسة، فيلين ويسمح، أو غروباً طيبة وديعة، فيقسو ويشتد.. ومن هنا قالوا: (الفرس من الفارس) ! وقال أحدهم: المرأة كالآلة الموسيقية، إن أحسنت العزف عليها، أسمعتك أنغاماً جميلة شجية، وإن لم تحسن، أسمعتك أنغاماً ناشزة مؤذية. وقالوا: أنجح امرأة تلك التي تعامل الرجل كطفل! وقد يكون الدافع هو الجهل بأسلوب الاتصال الجنسي، والقواعد والمعلومات الأولية، أوغير ذلك.

وإنه لمن التدين الخاطئ، اعتقاد كثير من الرجال، ولا سيما في المغرب، أن الشرع أباح لهم، بشكل مطلق، التزوج بأربع زوجات، والطلاق كذلك، لأتفه الأسباب، أو لمجرد التغيير والتجديد.. وقد يكون أيضاً، من التدين الخاطئ، اعتقاد المرأة أنها تستطيع أن تماري القوامة على الرجل، أو أن تعيش حياتها وحريتها مثل الرجل، أو بمعزل عنه، ولا يقتصر الجهل والتدين الخاطئ على الرجل، بل يشمل المرأة سواء بسواء، وإذا كان العلم والمعرفة، والدين الصحيح في الرجال واجباً فهو واجب بل أوجب، وأكثر ضرورة في النساء، لأنه كما قال الشاعر حافظ ابراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها، أعددت شعباً طيب الأعراق!

وكما نسب إلى نابليون، أنه قال:

إن الأم التي تهز السرير بيمينها، تستطيع أن تهز العالم بشمالها:

النتائج والعواقب:

نتائج الطلاق، وعواقبه كثيرة وكارثية على الأفراد والمجتمعات جميعاً، ونشير –فيما يلي– إلى أظهرها:

A– انتشار الزنا، أي: العلاقة الجنسية غير المشروعة بين الجنسين، وخطر حلولها، شيئاً فشيئاً، محل الزواج!

وهذا يعني انتشار الدعارة والزنا، الذي يؤدي، بدوره، إلى تصدع الأسر، وانحلال الروابط الاجتماعية، وانتقال الأمراض الخبيثة والوبيلة، بالعدوى، بين أعضاء المجتع، وضعف الصحة العامة، وإضعاف النسل عامة..

---

[1] ـ تتمة ـ بما فضّل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم)، النساء ٣٤.

B– خلق وتنشيط تجارة الجنس:

فمما لا شك فيه، أن الطلاق أحد الأسباب البارزة الرئيسية في خلق تجارة الجنس، وانعاشها، أعني، بذلك، بيع الهوى واللذة، وما يستتبع ذلك من وساطة وقوادة وسعاية..

فأكثر المطلقات، ينقلبن – إن لم يجدن ما يعملن، أو لم يتزوجن – إلى بائعات هوى، بأنفسهن، أو بواسطة قوادين وقوادات، ومن يتبع ذلك من وسطاء آخرين، وسعاة وخدام..

فإذا بلغن، من العمر، أرذله، وذهب عنهن البريق والنضارة.. آل أمرهن إلى القوادة والسعاية والخدمة والوساطة.. وهكذا!

C– إمداد التسول والتشرد والتصعلك..

بروافد جديدة دائمة:

الحقيقة أن الطلاق هو المعين الذي لا ينضب، والغوار بالشؤم والشر، والذي يمد التسول والتشرد والتصعلك، كل يوم، بأفواج جديدة من الأشقياء والتعساء والمحرومين..وهو الشبح المخيف، الذي ينشر، في الأسر، الخراب والدمار، ويزرع الرعب والقلق، ويخلف، وراءه، الإجرام والانحراف..

D– إعقاب القلق والعذاب والحرمان:

لنتصور، كيف تكون نفسية المطلقة –بَلْهَ المطلق– والأولاد المساكين، وأهل كل من الزوجين..؟!

إن نفسية المطلقة حزينة – في الغالب، متشائمة، قلقة، خائفة من المستقبل، منكسرة، لأنها أصبحت تشعر أنها امرأة من الدرجة الثانية، وأنها مرغوب عنها.. ثم إنها تشعر –لاريب– بعذاب وألم وحرمان، إذا ما طلقت، قبل أن تنجب، أو طلقت بعد، فأبعدت عن أولادها، فلذات كبدها!

وتخيل –أعزك الله– ذلك الشعور الممض الأليم، الذي يلازم الرجل المطلق، وعذابه وتوجعه، وتخوفه على أولاده، سواء أتزوج بأخرى أم لم يتزوج، وتخيل –بعد ذلك– حال الأولاد كيف تكون؟ مهما هوّنا من الأمر، فلا بد من أن يعانوا شيئاً غير قليل من شقاء ومرارة ورؤس، وتوجع وعذاب، وخوف وقلق، وأن يحرموا نصيباً من العناية والحنان، والرعاية والضمان، وأن يحقدوا ويضطغنوا، ويشعروا بالغبن والظلم..

E– الرهبنة والعنوس:

قد يقود الطلاق، وما يجره من ويلات ومصائب بعض الرجال والنساء، إلى الخوف من الزواج ومشاكله، وتبعانه وجرائره، فيُعرضون المترهبين عنه، سالكين طريق الرهبنة والعنوس.. إلى ألوان من الشذوذ الجنسي، كالسحاق، وب=لك يعطلون سنة من سنن هذا الكون واللواط وغيرها التي سنها الله تعالى وحلل، لإعماره واستمراره.. ويبتعدون عما شرع الله ويساهمون في إفساد ما نزلت الشرائع كلها من أجل إصلاحه وإسعاده..

العلاج أو الحلول المقترحة:

I. علاج الميل إلى التحرر والانطلاق:

بديهي أن يكون التحرر من المسؤوليات والواجبات، والانطلاق من القيود والحدود الاجتماعية مناقضاً لناء الأسرة، والمشاركة في تشييد المجتمع، والتعايش والتلاؤم مع ظروفه وأحواله، ونظمه وشرائعه.. لذلك يتحتم على المرء ولا سيما المقبل على الزواج، والداخل في تجربة الزواج حديثاً، أن ينكب على دراسة وفهم الحقوق الواجبات، وأصول التعايش والائتلاف، وأسباب النزاع والاختلاف، وطبيعة تلك القيود والحدود، التي يتعين عليه الالتزام بها، أو تجاوز بعضها، والمبادئ الأولية والضرورية لحسن المعاملة وصلاح المعاشرة، وكيفية الاهتمام والعناية بالأولاد، وإشاعة الاحترام والتعاون، والثقة والمحبة بين أفراد الأسرة.. ولا أقصد بهذا، الرجلَ وحده، بل المرأة كذلك، فكل ما يطالب به الرجل، تطالب به المرأة سواء بسواء، وأي نقص أو خلل في ذلك، لا بد أن يظهر، بعد ذلك، مترجماً إلى خلاف وشقاق بين الزوجين! وأقترح –بهذا الصدد– إقامة معاهد أو مؤسسات مختصة، مهمتها الإعداد للحياة الزوجية، بمختلف ألوانها وأشكالها وبيئاتها ويلزم بولوجها، والخضوع فيها لدورة تدريبية، كل مقبل ومقبلة على الزواج، وحتى المتزوجون الذين يعانون من حالات الشقاق والاختلاف وعدم الاستقرار.. في تلك الدورة، لا بد أن يتعلموا المبادئ الأولية في حسن العشرة والتعامل، والمعلومات الضرورية عن الحياة الجنسية.. وقائمة الحقوق والواجبات، وأصول تربية الأولاد، وأسباب الخلاف والتصدع، وعواقب الطلاق والفراق..الخ.

ويمكن أن يستعان، من أجل =لك بشتى الوسائل المعنينة، كالأفلام، والمسلسلات، والصور، والمحاضرات الميدانية، وما إليها.. وتعطى للخريج والخريجة شهادة، كأي شهادة تعليم وإعداد، لأن الزواج اليوم أصبح أخطر مشروع، وأصعب قرار، وأكبر مغامرة.

II. علاج التشوق إلى التغيير والتجريب:

أعتقد أن هذا التشوق، صفة ملازمة لكثير من بني آدم، من الجنسين، ولا يماري، في ذلك، إلا مكابراً ومعاند أو غافل جاهل، فقليل من العباد من رزق الصبر على طعام واحد، والقناعة والرضا بما تحت يديه، ولولا الأخلاق والمكارم والوزائع والروادع الدينية، والتقاليد الراسخة والعادات الحسنة والأعراف الاجتماعية الطيبة لسطا بعضهم على ممتلكات بعضن ولتنازع أكثرهم على المرغوبات والمشتهيات والمحرمات..

ولا شك أن أغلب القضايا والمشكلات، التي تنشغل بها دور القضاء والعدل اليوم خاصة، تتعلق، بسبب من الأسباب، بهذه الأمور وأرى أن معالجة التشوق إلى التغيير والتجريب، تكمن في التالي:

أ- تعميق التدين: ففي التجاء الفرد والجماعة إلى الدين القويم، وفهمه وتمثله، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والتمسك بأهداب فضائله ومكارمه، وشغل النفس بالخيرات والمكرمات والسعي إلى تحقيق الغايات الكبرى والتسامي والارتفاع إلى المقامات العليا، بالعلم والعمل، والجهاد والإيمان والصبر.. شفاء للنفس أي شفاء من الجشع والطمع، والأثرة والحسد، والغيرة والتعدي وما إلى ذلك..

ب- الزواج المتأخر: وأعني به أن يتم بعد النضج والاكتمال، واتساع التجربة، وتنوع الخبرة والمعرفة، بشتى صورها وألوانها لكلا الزوجين، وهو بالرجل أجدر، وله ألزم.. وخاصة في مجتمعاتنا الموصوفة السن الزمني غير مرتبط -حتماً- بالسن العقلي، والنضج العاطفي والاتساع المعرفي..

ولئن كتب النجاح لبعض حالات الزواج المبكر، في عدد من البيئات والمجتمعات، فإنه يظل _في نظري- مجازفة غير مأمونة العواقب، وتجربة محفوفة بالمحاذير والمخاطر والاخطاء، وإطالة فترة الخطبة، ضرورة يتطلبها شرط النضج والاكتمال.

III. علاج مشكلة العطش الجنسي وعدم الارتواء العاطفي:

نقول أولاً إن هذا الارتواء، وذاك الشبع، لا وجود لهما إلا في المخيلات والتصورات، وعالم الأحلام والظنون.. فليس هناك ارتواء، أو شبع مطلق، لأن الجوع الجنسي، والتوتر العاطفي، كالجوع إلى الطعام، والعطش إلى الشراب.. حاجة متجددة دائماً، فلا شبع ولا ارتواء، ولا استقرار إلا لمدة محددة، بل قد تختلف الحاجة أو الغريزة الجنسية عن غيرها، بأنها يمكن إلهاؤها وشغلها، باعتزال المحرضات والمثيرات والمنبهات، أو بكثرة العمل والانشغال عنها بقضايا ملحة وأمور هامة، كما يمكن إعلاؤها وتصعيدها، بألوان من الرياضة والفن والأدب والعلم وغير ذلك.

ولكن الإلهاء والتصعيد وما إليهما، أمور استثنائية غير عادية، ولا يستطيعها إلا قلة قليلة من البشر، وتبقى الحاجة الجنسية قائمة ملازمة لوجود البشر، لازمة لاستمرارهم..

والذي أعنيه من عدم الارتواء الجنسي والشبع العاطفي، هو عدم تحقق النسبة الطبيعية المعقولة، من التناغم والتجاوب الجسدي بين الزوجين، وعدم الشعور بالرتياح والرضا، والسعادة والانفراج، عقب العملية الجنسية، أ، الوصال، وذلك لأسباب نفسية، أو عضوية، أو مزيج من كلتيهما، وعلاج الأسباب العضوية -إن كان ممكناً- إنما يتم باللجوء إلى الدواء والأطباء المختصين، وعلاج الأسباب النفسية، يكمن في الإيحاء إلى النفس، بالرضا والقناعة، وإلزامها الاستقامة والفضيلة، وحب الخير والإيثار، وفي استشعار السعادة والبهجة، وتكلف الفرح والابتسام.. وأخيراً في مراجعة الأطباء النفسيين المختصين، إذا اقتضى الأمر..

وغالباً ما يكون العلاج العضوي، مقدمة للشفاء النفسي، نظراً لعلاقة الارتباط بينهما، وعندي أن الصحة النفسية هي أولاً، والصحة الجسدية هي المحل الثاني، كالرأي بالنسبة للشجاعة، في قول المتنبي:

الرأي قبلَ شجاعة الشجعان، هو أول، وهي المحل الثاني!

وقد يكون وراء عدم التناغم النفسي، والتجاوب الجسدي، أسباب متنوعة كثيرة، كالفارق الكبير في السن، أو التباين الثقافي، أو الاجتماعي، أو الخجل والحياء، أو الخوف والتوجس...الخ

ولكن أسباب عضوية وأخرى نفسية ومعالجتها جميعاً هو السبيل الوحيد لحل المشكلة.

IV. علاج النزاعات والخلافات الناشئة:

كثيراً ما تنشب الخلافات والنزاعات في الأسر، وخاصة الناشئة منها، وذلك بسبب القيم المختلفة _كما أسلفت- والعادات والتقاليد الأسرية، واختلاف النظرة إلى الحياة وغاياتها، وتباين الرأي حول تربية الأولاد، أو الغيرة من تصرف أحد الزوجين، أو فقر الزوج وعجزه عن تحقيق أحلام الزوجة.. أو غيره من الأسباب، التي يتعذر رصدها وتعدادها، لذلك اشترطت، في كثير من الأحيان، شروط لعقد الزواج، لعل من أهمها، الكفاءة في كل من الزوجين للآخر، أي كونه كفؤاً له مادياً ومعنوياً.. وذلك تلافياً لوقوع مثل تلك النزاعات و الشقاقات، وهذا –لاشك- من أهم سبل علاج هذه المشكلة قبل وقوعها، كأنه إجراء وقائي مسبق، وقد أشار الرسول (ص) إلى شرط آخر، وهو شرط تدين المرأة وحسن خلقها: فقال: "تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك!"

وقال محذراً من الانخداع بالحسن والمظهر الخارجي [١] : "إياكم وخضراءَ الدّمَن"[٢].

وأوصى بالنساء خيراً، وبالصبر عليهن، والإغضاء على اعوجاجهن، وهذا من طرق العلاج بعد الزواج، ووقوع المحذور!

ودعا الله تعالى، أيضاً، إلى تحكيم حكمين: واحد من أهل الزوج، والآخر من أهل الزوجة، يبحثان أمر الخلاف والشقاق، ويصدران حكمهما فيه، ملزماً المتجانف منهما بالعودة إلى الجادة الصواب، وقد يصل الأمر إلى القاضي، فيحكم فيه موفقاً بين الزوجين المختلفين أو مفرقاً بينهما، وأهل كل من الزوجين يلعبون في التوفيق بينهما، أو التفريق والاختلاف، أكبر الأدوار وأشدها أثراً فكثير من حالات الطلاق أو الوفاق بعد شقاق ونزاع، يكون وراءها الأهل والأقارب..

ومن سبل العلاج أيضاً، أن تتريث المحاكم في قبول دعاوى الطلاق، وفي إيقاعه بين المختلفين، وعليها اتخاذ كافة سبل الإصلاح والتوفيق.. قبل ذلك، وأتصور أنه يمكن إحداث مؤسسات خاصة، لمعالجة الخلافات الزوجية، ودراسة المشكلات الطارئة، وإيجاد الحلول الملائمة، وذلك برعاية الدولة وتخطيطها، وكذلك يمكن للدولة أن تقوم بحملات توعية وتثقيف، في هذه الناحية، عبر وسائل الإعلام المتنوعة، كأحد سبل المعالجة أيضاً..

V. علاج مشكلة الجهل والتدين الخاطئ:

لقد سبق أن تناولنا، بالبحث، علاج مشكلة الجهل والتدين الخاطئ، عندما بحثنا أسباب ظاهرة التصعلك وفروعها، وعلاجها، فليرجع إليه من يشاء.

السُّكْر والخَدَر

فرز ووصف: وردت كلمة السُّكر – بضم السين وسكون الكاف- في بيت شعر للمتنبي:

إذا كان الشبابُ السَّكرَ والشيـ... ...بُ هماً، فالحياة هي الحمام

[١] متفق عليه
[٢] تتمة – قيل: يا رسول الله، ما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. إتحاف الأنام.. الخطبة ٢٩٣

فما هو السكر؟ في المنجد: سَكرَ يَسْكَرُ سَكَرَاً وسَكْراًوسُكْراً وسُكُراً وسَكَراناً من الشراَبنقيض صحا، والسَّكر: الخمر، قال تعالى[١]: ((ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً)) وسُكارى جمع سكران وسكرى، قال تعالى[٢]: "وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد"

أما الخَدَرُ، فهو –في المنجد– مصدر خَدرَ يَخّدَرُ العضو إذا كسل وفتر وثقل، والخَدَرُ طبياً: التشنج يصيب العضو فيشله عن الحركة، وكلمة الخدر وردت بمعناها الشائع في هذا العصر، في جملة من الشعر الحديث، أو شعر التفعيلة، لنزار قياني عقب نكسة حزيران عام ١٩٦٧م، ينتقد فيها أبناء الشرق، وينعى عليهم تخلفهم:

يحملون الخبز.. والحاكي.. إلى رأس الجبالْ!

ومُعَدّات الخَدَرْ!

ما الذي يفعله قرص ضياءْ

ببلادي، بلاد الأنبياء والبسطاءْ!

ما ضغي التبغ، وتجار الخَدَرْ!

وكلنا –لاشك– قد سمع الكثير عن المخدرات وأنواعها، كالحشيش والأفيون والقات والكوكائين والهيروئين والنوفالجين... وعن منعها ومحاربتها في أكثر المجتمعات، وعن حوادثها وضحاياها حتى اليوم، وعن عصاباتها وتجارها، وعن الفرق والجماعات التي تتعاطاها...الخ.

ولعل أكثرنا، عرف عن كثب، أو بالتجريب والاختبار أنواعاً من تلك الخمور (المسكرات)، والمخدرات.. ووقف على قضية التدرج في تحريم الخمر في الإسلام، فقد أشير إلى الخمر بالذم أولاً، ثم حُرمت –كما في الآيات التالية: ((ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون))، [٣]، ((يسألونك عن الخمر والميسر قل: فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما))، [٤] ((إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر..))، [٥]، وسَمِعَ بالحديث الذّي يُروى عن الرسول (ص)، بصدد تحريم بقية المسكرات والمخدرات ذات المفعول القليل أو الكثير: ((كل شراب أسكر فهو حرام))[٦]، وسمع –كذلك– بالحديث الذي معناه: أن الخبائث جُمعت كلها في حجرة، وجعلت الخمر مفتاحها!

وإن الله تعالى لعن الخمر وشاربها وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها[٧]..الخ.

---

١ النحل ٦٧
٢ الحج ٢٢
٣ النساء ٤٣
٤ البقرة ٢١٩
٥ المائدة ٩٠-٩١
٦ متفق عليه
٧ انظر اتحاف ا لأنام.. صـ٢٣٥

ولا شك أن التحريم وقع عليها وعلى غيرها، بسبب سلسلة من الحوادث الاجتماعية المؤلمة، والقرآن يخبرنا أن الشيطان اتخذ من الخمر والميسر وسيلة لإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس وصدهم عن ذكر الله..[١]

وفي التوراة ما ترجمته: وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه [ساماً ويافثاً] خارجاً، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما، ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم..

واضح من هذا النص ما أشير إليه من الموبقات والعقابيل التي تجرها الخمر وتخلّفُها حتى في أسر كأسر الأنبياء!

والتاريخ والأدب، بشعره ونثره، طافحان بأخبار السكر والعربدة.. على مر العصور – حتى في قصور الأمراء والخلفاء والوزراء.. إلا من عصمهم الله من القلة القليلة! حافلان بتلك القصص الطريفة عن مجالس الخمر وآداب الشراب، وصفات الندماء، وعن حوادث العقاب، وإقامة الحد، وغير ذلك.

وقد قرأت في (الشاهنامة) للإدريسي: أن أحد ملوك الفرس، كان قد حرم الخمر على الناس، فلما رأى، ذات يوم، أحد السكارى يمتطي سبعاً ضارياً، يحسبه ويعامله كالحمار! ضحك وتعجب من فعل الخمر! وعاد فأحل شربها: معللاً بأنها تهب شاربها شجاعة وإقداماً!!

ولكن الحوادث التي تطالعنا بها الصحف والمجلات.. كل يوم من قتل وسلب، واعتداء وانتحار.. يُعزى أكثرها إلى شرب الخمر، وتعاطي المخدرات..

ونجد معظم الدول الأوربية وغيرها تحارب وتلاحق متعاطي وتجار المخدرات خاصة وتضيق عليهم الخناق.

أما الخمر، فيلاحظ أنها تحظى بنوع من التسهيل والتساهل لدى معظم هذه الدول.. لكونها أقل خطراً من المخدر، ولارتباطها الوثيق بنمو الاقتصاد وتنشيطه، فيما يبدو!. وكما يزعم بعضهم...

ويلاحظ أن تعاطي الخمر حتى في البلاد التي تحرم بيعها وتعاطيها منتشر –سراً غالباً– بين الناس، بالإضافة إلى المخدرات، وأنواع من القمار أو الميسر، باسم التسلية والترفيه.. وقد أدى المنع، والملاحقة غير المصحوبة بالتوعية والشرح والتعليل والإقنا.. إلى نتائج عكسية!

وإليك صوراً من تعاطي الخمر والمخدرات:

١– شلل من الشباب في الدور والمقاصف والملاهي والمنتزهات والمنتجعات المختلفة.. إذ يجتمع أفراد الشلة، في أحد هذه المواقع، أثناء الأعياد والمناسبات، والعطل الأسبوعية، أو في أوقات الفراغ، يتحلقون حول مائدة عظيمة، عليها أنواع من الأطعمة والمقبلات، والفواكه والنقل، ونوع أو أنواع

[١] الإصحاح التاسع من سفر التكوين، انظر كتاب دروس اللغة العبرية –لربحي كمال- صـ٤٥٣- الآية ٢٨ وما بعدها

من الشراب.. وقد تشاركهم في ذلك، امرأة حسناء تسقيهم وتنادمهم! وقد يكونون خليطاً من الجنسين على حد سواء!

٢- بعض الطلاب والطالبات أثناء الرحلات والنزهات الداخلية والخارجية.. إذ تتاح لهم فرص الفراغ، والتخفف أو التحلل من أعباء العمل، وأثقال المسؤولية، وإذ يشعرون بغيبة الرقابة، وفضول الاستطلاع والتجريب، ورغبة التجدد، وتغيير رتابة الحياة.. فيقبلون على الشراب واللهو والمجون..

٣- العوام من الناس الذين تراهم يملؤون الخانات و(الكازينوهات)، كل ليلة، وخاصة في العاصمة والمدن الكبيرة، وأغلبهم من المسافرين والنازحين عن ديارهم وأقاليمهم، والشاردين عن بيئاتهم وأسرهم، لأسباب اجتماعية متنوعة.

٤- أولئك الذين يتعاطون الحشيش أو غيره من المخدرات سراً، وفي الخلوات، إذ يجتمعون في خلواتهم ويديرون، فيما بينهم، لفافة أو لفائف (سجائر) محشوة بالمخدر، مشعلة الطرف، يمص كل منهم مصة منها ثم يعطيها لجاره، وهكذا..

وفي المغرب، يتعاطى عدد، ليس بالقليل، الخَدَر، فبعض الشباب يتعاطونه، في مجموعة تجلس إلى بعضها، ومع كل واحد أنبوبة من العود، مثقوبة من الداخل، ولها مغرفة بطرفها تملأ بالمخدر وتشعل، وتمص من الطرف الآخر، وقد تدار واحدة فقط على الجميع، يعمرها كل واحد، على حدة، ويمتصها، وكثيراً ما يشارك، في ذلك، الفتيات أو العاهرات منهن -على الخصوص- وهناك الذين يتعاطونه فرادى..

وفي مصر، نرى -عبر الأفلام وغيرها- كيف يتعاطون المخدر، إذ يجتمع المتعاطون زمرة في خلوة من الخلوات، يتبادلون -فيما بينهم- تلك الجوزة ذات الأنبوبة الطويلة يمص كل واحد منها مصة عميقة ثم يناولها إلى الآخر، وهكذا دواليك..

وفي اليمن، كنا نسمع ونقرأ قبل الثورة كيف يمضغون القات مضغاً.. في الحوانيت، وفي المنازل، والطرقات..

وفي سورية، شاهدت ذات مرة رجالاً يمضغون نوعاً من التبغ، ويضعون منه شيئاً تحت شفاههم لمدد معينة، ثم يبدلونه، وهكذا..

وفي المغرب، سمعت وشاهدت صوراً أشد غرابة، وأبعد أثراً ودلالة: سمعت وشاهدت أولئك الذين يشربون الكحول: كحول التطهير والاستصباح، أو نقيع الجوارب القذرة، المشبعة بعرق الأرجل، أو أظلاف وحوافر الدواب، أو زبل بعض الحيوانات.. فترى أحدهم منطرحاً على قارعة الطريق، أو على المزابل، أو في إحدى الزوايا أو منعطفات الأرصفة.. كالميت تماماً، أربعاً وعشرين ساعة أو أكثر وقد عشش الذباب، قبل أن تحققه، كومة قمامة- أو حزمة خرق بالية! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد قيل لي: أن أكثر هؤلاء هم من المعدمين الذين، لا يملكون ثمن قوتهم اليومي، بله ثمن المخدر أو الشراب.. أما الذين هم (لا بأس عليهم) كما يقولون هناك- فإنهم يأتون بالنبيذ الأحمر المسمى (الروج) Le Rouge أو الويسكي Whisky أو الشامبانيا Champagne...الخ

ويتعاطونه في مجالس لهوهم ومجونهم ولذتهم.. مع المخطيات والعشيقات، أو الغائيات والعاهرات.. في مجالس شبه دائمة ومرتبة، تسمى (مجالس التقصير)! أي: تقصير الوقت باللهو واللعب والسرور، والأكل والشرب (والجنس).س

لذلك.. فما أشد ما تسمع هذه الكلمة (التقصير) و(قصَّرَ)، و(يقصّر)، وما يتبعها من كلمات مكملات يكثر ترددها على الألسنة: كالروج، و(المكلى)، أي: الطعام، والشراب، والبنات، والعيالات أي النساء والنشاط، أي: الانغماس في اللهو والمتعة وما إليها.

الأسباب

أ- الفضول أي حب الاستطلاع والتجريب:

الحق أن ممارسة كثير من الأعمال أو العادات، -تكون في أول الأمر- استجابة لدوافع حب الاكتشاف والتجربة والمعرفة ولما كان كل من هذه الأمور، لا يتحقق ولا يتم دفعه واحدة، بل بالتدرج والتكرار.. فإن كثيراً منها يصبح -بهذا التدرج والتكرار- عادات متمكنة، قلما يستطيع الإقلاع عنها، والإفلات منها، إلا ذوو العزائم والإرادات القوية، والعقول النافذة المتبصرة.. وكذلك الشأن مع الخمر وكل مخدر، وحتى التبغ و التدخين، فالمتعاطي، أول الأمر، يبدأ مستطلعاً مجرباً في الغالب، ثم يصير مداوماً مدمناً أو -على الأقل- متسلياً بذلك متلهياً! إذ يصبح ما يتعاطاه مكيفاً لمزاجه، مزيلاً أو مهدئاً لتوتره، مكملاً لهناءته وراحته، مخيّلاً له أجواء الانشراح والسعادة! موهماً إياه نسيان الهجوم والآلام والأحزان..

ب- رواسب ومخلفات الاستعمار:

لا يشك أحد في أن تعاطي المسكرات والمخدرات، يوهن القوى، ويُمرض العزائم، ويمحق الإرادات، ويقضي على الطموحات والتطلعات، ويفسد الصحة العامة، ويوقع العداوة والبغضاء بين الأفراد والجماعات.. وقد عرف المستعمرون، على مختلف أشكالهم وألوانهم ومشاربهم، هذا السلاح الفتاك، فاستخدموه ضد الشعوب والأمم التي وقعت في قبضتهم.. حيث شجعوا وأغروا المستعمرين بفتح الميم – ولا سيما الشباب منهم، على تعاطي الخمور والمخدرات، وممارسة ألوان من اللهو والمجون، والتسلية والتلهية، فلاًّ لهممهم، وإضعافاً لإرادتهم، وصرفاً لأنظارهم وعقولهم وقلوبهم عن التفكير في معالي الأمور، كالتحرر والتقدم، والاتحاد والتكاتف، وضرورة الجهاد والمقاومة، وبناء أمجاد الوطن وإنقاذ كرامة الأمة...الخ

ولكن -لسوء حظ هؤلاء المتعمرين- وبفضل جذور الصحة والبقاء والحياة في شعوبنا وأمتنا.. هُزمت وتثلمت أسلحتهم جميعاً، ولم يبق منها غير الكيد والإيذاء، والحقد والتآمر.. كلما سنحت لذلك

فرصة، وهبت رياح، وتعكرت مياه. وغير بقية من الرواسب والمخلفات البغيضة، التي عسى أن تتنبه شعوبنا إلى خطورتها وأضرارها قريباً، فتسارع إلى إزالتها وغسلها والتخلص منها في أقصر زمن.

ج- تغاضي الدولة أو تعاميها، أو تسامحها بهذا الشأن:

لأمر ما نرى الدولة تغض الطرف –أحياناً- أو تتعامى، أو تتسامح بشأن المسكرات والمخدرات، وخاصة في المغرب، حيث يرى الرئي عدداً كبيراً من الحانات، وباعة الخمر ومروجي المخدرات أو نوع خاص منها –على الأقل يسمى (الكيف)، ويرى طائفة من الناس أغلبها من الشباب، قدْتها فتت على شراء هذي المسكرات والمخدرات، وتعاطيها علناً، في الأعم الأغلب، وذلك تحت سمع الدولة وبصرها.. ولا يتدخل رجال الدولة إلا في حالة حدوث اضطراب أو فوضى أو اعتداء السكارى على أحد من الناس.. صحيح أن الدولة تتذرع، في موقفها السلبي ذاك، بالحرية العامة وصيانة أجوائها.. إلا أن الذريعة الحقيقية –كما يبدولي- هي الاقتصاد فالمنافع الاقتصادية، التي توفرها هذه المواد الملعونة! وهي التي تعمي الأبصار، وتضلل الأفئدة عن الأضرار والأخطار، والموبقات والآثام التي تنجم عنها..

وصدق الله العظيم إذ قال، عن الخمر والميسر: ((وإثمهما أكبر من نفعهما))[1]،

وحين نؤثر النفع المادي، على الكسب الروحي والرضا الإلهي، فنحن صائرون إلى الضعف والانحطاط الصحي والخلقي، –لامحالة– وبئست عاقبة، وساءت مصيراً!

د- البطالة والعطالة: سبق الحديث عن هذا السبب، فليُطلب في موضعه، إن لزم.

هـ- الجهل والأمية:

و- التدين الخاطئ: وتحدثنا عن هذين السببين أيضاً، حين عرضنا لأسباب الطلاق، فليرجع إليهما من يشاء.

وإذا كان للبطالة والعطالة يد في شيوع آفة السكر والخدر، فإن للجهل والأمية، والتدين الخاطئ –أيضاً- أكبر وأعظم أثر في ظهور هذا المرض –السكر-، وتفاقم تلك الآفة –الخدر- وترعرعها واستمرارهما..

ز- الوراثة:

قد يرث بعض الأبناء، عن الآباء والأجداد، عادات مثل السكر والخدر، فقد ثبت أن ((العرق دسَّاس))[2]، وأن كثيراً

النتائج والعواقب

يمكن أن نحصر أهم النتائج والعواقب الظاهرة السكر والخدر فيما يلي:

A. ظهور الضعف والهزال الجسدي، والخور والخواء الروحي..

---

[1] البقرة ٢١٩

[2] كما روى عن عمر (رض): ((تزوجوا في الحجر الصالح، فإن العرق دساس)) منهاج المسلم صـ٩٢، وبما رواه الحاكم عن عائشة (ر) وصحيحه.. ((تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم)) الفقه الإسلامي وأداته صـ٦٤٩٥

يمكن، للملاحظ المدقق، أن يرى مظاهر الضعف والانحطاط والهزال، على شخوص مدمني الخمر والمخدرات عامة، ذلك أن شرب الخمور، وتناول المخدرات يقضي، أو يقلل من الشهية للطعام، شيئاً فشيئاً، بل حتى التدخين يمكن أن يفعل ذلك بالمدخنين! ويحدث اضطراباً وخللاً في تمثل الغذاء وهضمه.. وقد يؤدي ذلك إلى الترهل والسمنة والانتفاخ، وما يمكن أن يشبه أعراض المصابين بداء (الفيل)، وهي –على كل حال– مظاهر ضعف وبلادة وانحطاط، لا مظاهر قوة وعافية وتوثب.. ولعل، في انشغال المدمن أو المتعاطي للخمر والمخدر، وإنفاقه جل ماله عليها، ما يصرفه عن توخي الغذاء الصحيح المتوازن، ويحرفه عن توفير المواد الضرورية لإيجاد هذا الغذاء.

أما الخَوَر المعنوي، والخواء الروحي، فيظهران المتعاطي أو المدمن.. سأماً من تيار الحياة، وعجزاً عن متابعة الحركة الثقافية، ومواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي.. بلْهَ المشاركة فيها، فضلاً عن الخلق والإبداع..

B. السكر والخدر سبب لأمراض أخرى:

ثبتت العلاقة –طبياً بين السكر والخدر، وبين عدد من الأمراض، كالسرطان، والسل، والتشنج.. أضف إلى ذلك بعض الأمراض العقلية، كالجنون والصرع والخبل.. وستكشف لنا الأبحاث العلمية والطبية، مزيداً من العلاقات الثابتة بين كل نوع من الخمور والمخدرات، وبين مختلف الأمراض والعلل التي تحدثها، حسب درجة تعاطي كل منها ومقداره.. وسيعرف الناس أن ما نهانا الدين الإسلامي عنه، من الأطعمة والأشربة، وما أمرنا به من الاعتدال والقصد والتوسط، واعتماد العقل والحكمة والرأي والنظر في كل أمر.. هو الحق، وله السبق على طب جالينوس وحكمة سقراط، ومعرفة جميع القدماء، من الفلاسفة والحكماء والعلماء...

C. وقوع السكارى والحشاشين في كثير من المواقف المخزية، والأعمال الإجرامية الشائنة:

فالسكران أو المتخدر، نظراً لذهاب عقله، واستناد وجدانه الأخلاقي، وإحساسه الاجتماعي – يتحول– في الغالب، إلى حيوان بليد سادر، أو إلى وحش ضار مفترس، يغتصب فتاة بريئة، أو يعتدي على امرأة شريفة، أو يزني بأخته أو أمه، أو يعتدي على بريء، أو يقتل إنساناً أو أخاً له، أو ابناً.. أو يسطو على دار، أو ينهب حانوتاً، أو يسبب اصطداماً بين سيارتين.. وقد يُرى، في الشارع، من السكر ويتتعتع، أو ينطرح على الأرض، أو يتعثر ويسقط... وكل تلك الحالات قد رأيناها، وقرأنا عنها، وسمعنا بها، ولم تعد أوهاماً، أو محض احتمالات وصدف...

D. السكر والخدر إضاعة للشباب، وتبديد للطاقة:

إن عنصر الشباب، في كل شعب وأمة، هو العمود الفقري في عملية التنمية والتطوير، والرقي والازدهار.. فإذا ما قتل السكر والخدر هذا العنصر، ضاع أمل الأمة، وتبددت طاقتها.. لأن كل إنسان فيه طاقتان: طاقة إنتاجية، وطاقة فكرية إبداعية فالمتعاطي أو المدمن للمسكرات والمخدرات، إنما يقلل، أو يمحق الطاقة الإنتاجية لديه، بصرفه طائفة من جهوده ونشاطه، وساعات من عمره، في الشرب

والتخدر.. ويقضي على الطاقة الفكرية الإبداعية عنده أيضاً، بهذا الذي يتناوله، فجحجب به عقله وإحساسه، وينصرف عن الوعي والتفكير، ورؤية ما يجري حوله، من أسباب ومظاهر التقدم والرقي، ويقود ذلك كله –بالتالي– إلى:

E. إضعاف القوة الاقتصادية:

فقد عرفنا أن صرح الاقتصاد القوي، إنما يقوم على سواعد الشباب الأقوياء الأصحاء، وأن ميدان التقدم العلمي والفكري والصناعي، إنما يعتمد على الصاحين الأسوياء، لا على السكارى والخادرين ولا الحيارى والضائعين في الحانات والملاهي والشوارع.. ولنا أن نتصور حجم الطاقات المعطلة والمهدورة.. بسبب السكر والخدر.. ومخلص إلى أن الدول المتغاضية أو المتساهلة، أو المتعامية عن مكافحة هذه الظاهرة، ومعالجتها، إنما تضعف اقتصادها وتسير به نحو حافة لهاوية، من حيث تظن أنها أرادت له النماء والثراء والقوة!

F. توهين الروابط الأسرية، والعلائق الاجتماعية:

مما لا شك فيه، أن الحوادث التي يقوم بها السكارى والمخدَّرون، من قتل واعتداء وسلب ونهب، وتحرش وقذف، وتجاوز وظلم.. يوهن الروابط الأسرية، ويفرق بين أعضاء الأسرة بالعداوة والبغضاء.. والقطيعة.. ويوهن –كذلك– العلائق الاجتماعية والإنسانية، بسبب العداوات والنزاعات، التي تنشأ بين الأسر والجماعات التي قد يحدثها السكارى والمخدرون في بعض الحالات أو المناسبات.. لأن السكران والمخدر لا يعرف غير تحقيق شهواته، وإرضاء نزواته، لا يحس برقابة عقل أو ضمير، أو دين، ولا يشعر بتبعة أو مسؤولية أو التزام.. مادام في حالة سكره وخدره.. فإذا صحا وأفاق ربما تأسف وندم على ما فرط منه، وفرَّط فيه، ولات ساعة مندم!

الحلول المقترحة أو العلاج:

أرى أن الحلول المقترحة، أو العلاج لهذه الظاهرة، يتلخص ف بالخطوات التالية:

I.VI.VII علاج الفضول وحب الاستطلاع والتجريب:

إن الفضول وحب الاستطلاع، ميل فطري أصيل لدى أكثر الناس، إن لم نقل كلهم: ذلك أن معظم المعارف تحصّل بهذا الدافع، فهو ظاهرة إيجابية، إذا أحسن توجيهها، واستعمالها ضمن حدود وشروط معقولة مقبولة، وتختلف نسبة قوة هذه الظاهرة، من شخص لآخر، ومن جماعة إنسانية لأخرى، وقد يكون الفضول وحب الاستطلاع مرذولاً كريهاً، في بعض الأحيان، كأن يحاول أحدنا حشر أنفه فيما لا يعنيه، أو يحاول مراقبة تصرفات غيره من الناس، والتجسس عليهم، واستطلاع أخبارهم وأسرارهم، التي لا يريدون إظهارها، وقد يؤدي الفضول وحب الاستطلاع إلى وقوع أزمة، أو حلول مصيبة، وقد يودي بصاحبه، أحياناً أخرى، وكم من هالك جراء الفضول وحب الاستطلاع كما تقصه علينا القصص والحكايات والأساطير.. ولعلها من المحمودة تلك التي تتعلق باكتشاف المجاهل والمناطق البكر وكل مجهول من الأمور.. وهنا قد يطيل خيالنا إلى عباس بن فرناس، الذي حاول الطيرات أول مرة فسقط من عل فدقت

عنقه، والرواد الآخرين للطيران، وكذلك، الرواد الأوائل الذين حاولوا اكتشاف العالم الجديد (أمريكا)، قبل كريستوف كولومبس وماجلان.. وقد ذمت العرب الفضول الزائد عن الحد المقبول، والرجل الفضولي، وقرنته إلى الطفيلي الذي يحضر الولائم والمآدب بلا عودة.. في حين عرفت واستعملت (العين) ضد الأعداء –أي الجاسوس– ويسمى أحياناً (الربيئة).. ولم يسمع أن أحداً ذمه وعابه.

ولا ينجح الصحفي، في مهنة الصحافة، إلا إذا كان فضولياً، محباً للاستطلاع، فالفضول القوي من ألزم خصائصه، وكذلك العالم الباحث في مجالات العلم المختلفة.. نخلص، من هذا كله، إلى القول: إن الفضول وحب الاستطلاع، محمود وضروري، لتحصيل المعرفة واكتشاف المجهول، إلا في حالات معينة، فيعد فيها مذموماً معيباً، كالتي ذكرنا من محاولة نبش الأسرار، والتجسس على الآخرين لغير ما ضرورة مشروعة كمنع جريمة، أو دفع أذية. قال تعالى:((ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً))[1].

بعد هذا الاستطراد والبسط نقول: إنه ليس من الضروري أن يجرب الإنسان، ويستطلع أشياء قد جربها واستطلعها كثيرون قبله، وقرروا نفعها وضرها، ومازوا خيرها من شرها، وظهرت نتائجها واضحة للعيان مثل الشمس، كشرب الخمر، وتعاطي المخدرات ولعب الميسر، والتدخين، وأكل لحم الميتة...الخ

وإذا كان لا بد من الاختبار بالنفس، والتجريب والتعرف بالذات، فليكن، شريطة الحيطة والحذر، وعدم الاسترسال والانسياق والإدمان، وعدم تمكين العادة من النفس، وتأصيلها فيها، لأنه متى تمكنت العادة من الإنسان، أصبح عبداً لها، وهي إلهه. قال تعالى: ((أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم؟))[2]هذا، وإن كثيراً من المحرمات في الدين، لا تحتمل الاختبار والتجريب، بل تؤخذ على أنها مسلمات، مثل نكاح الابن أمه أو الأخ أخته.. ومثل أكل لحم الخنزير، ولحم الميتة، وشرب الخمر...الخ.

II.VI.VII علاج رواسب ومخلفات العهد الاستعماري:

إن هذا العلاج –في نظري– يكمن في عدة أمور، منها: –إعادة النظر– مراراً، في أنماط سلوكنا وتصرفنا، ونقدها نقداً ذاتياً دقيقاً، محكمين، في ذلك، مبادئ العقل والمنطق وأحكام الشريعة ومبادئ الحكمة، ومكارم الأخلاق– غربلة جميع ماوردنا، وما يزال يردنا، من نظريات وفلسفات وآراء وأفكار.. على ضوء ما لدينا، من قرآن وسنة، وآداب وأفكار، وحكم وأخلاق.. فأما ما يوافقنا، ويلائم حياتنا وبيئاتنا، وتطلعاتنا وأهدافنا.. فيضم ويهضم ويؤخذ به، وأما ما دون ذلك فيطرح، ويُنبه إليه ويحذّر منه بشتى الوسائل والطرق، وهذا يقتضي أولاً: حصر ما عندنا، ودراسته، وتقويمه، وإبراز النتائج.. الأمر الذي يعني إحياء التراث جميعاً، بما أمكن من السرعة وبتضافر جهود الأمة حكومات وأفراداً أو إعطاء الأفضلية لهذا الإحياء..

تمكين أفراد الشعب والأمة، من هذه الينابيع الثقافية الغنية الأصلية.. بكل الوسائل والطرق والإمكانات، لأن الثقافة الحق، هي السبيل الأمثل لمعالجة تلك الرواسب والمخلفات الاستعمارية البغيضة.

---

[1] الحجرات ١٢
[2] الجاثية ٢٣

III.VI.VII علاج مشكلة تغاضي الدولة، أو تساهلها بشأن هذه الظاهرة:

إن الدولة، بأجهزتها ومؤسساتها وإمكاناتها.. تعتبر مربية، وراعية مسؤولة عن رعيتها، ولا بد لها من أن تمارس دورها الكبير الموط بها، في علاج ظاهرة السكر والخدر، وأرى أن هذا الدور يتمثل في :

١) تسخير وسائل إعلامها جميعاً، للتوعية والتثقيف، وبيان أضرار وأخطار السكر والخدر، وغير ذلك من الظواهر الضارة الفتاكة بالصحة العامة.

٢) منع صناعة وزراعة المخدرات والمسكرات إلا لضرورة طبية، وصناعة دوائية.. ومنع استيرادها والتجارة بها.. تدريجياً، وعلى مراحل..

٣) تشديد الرقابة على ذلك وفرض عقوبات ومن الأقوم إقامة الحدود الشرعية على السكارى والمخدرين، بعد القبض عليهم للمرة الثالثة متلبسين بالمخالفة، أي: بعد وعظهم وإرشادهم وتوعيتهم، وتنويرهم وتنبيههم إلى العقوبة، أو الحد الذي تستوجبه المخالفة، في كل من المرة الأولى والثانية..

فإذا قبض عليه، في المرة الثالثة، وهو سكران أو متخدر.. في مكان عام، وشهد على سكره أو خدره شاهدان عارفان عدلان، أقيم عليه الحد الشرعي المفروض، أو وقعت عليه العقوبة المنصوص عليها في القانون، ولا فرق، في ذلك، بين غني وفقير، وشريف ووضيع.. وقد يعترف السكران أو المتخدر من تلقاء نفسه، فلا حاجة، حينئذ، لشاهدين وكذلك يعامل المخالف في مجال زراعة الممنوعات والتجارة بها..

IV.VI.VII علاج مشكلة انتقال عادات السكر والخدر وغيره بالوراثة:

سبقت الإشارة إلى أن الصفات الخُلُقية والنفسية والخلْقية، تنتقل، أو يمكن أن تنتقل بالوراثة، من الآباء والأصول إلى الأبناء والفوق، والعادة عندما تترسخ، تصبح خُلْقاً ثابتاً، وقد طرحنا –من قبل– السؤالين التاليين:

١ ماحيلة الذين يجدون أنفسهم، محملين بأوزار وأمراض الماضيين، من الآباء والأجداد؟

٢ وكيف السبيل إلى تغيير دمائهم، واستجابات أعصابهم، وردود أفعالهم..؟

الواقع أنه لا يستطاع، البتة، التخلص من جميع الأوزار والأمراض والعادات والأخلاق، التي آلت إلينا بالوراثة عن الآباء والأجداد.. ولكن يمكن التخفيف والتقليص من أثرها، والتعديل والتطعيم، وتوفير المقاومة.. وخاصة في هذا العصر، فالذي ورث الضعف والهزال، يستطيع بالغذاء الصحيح الملائم، والرياضة الخاصة الدائمة.. بلوغ الصحة والعافية والقوة..

والذي ورث مرضاً من الأمراض، كالسل والصرع.. يستطيع مراجعة المستشفيات والمصحات والمراكز المختصة لمعالجة هذا المرض –أو ذاك– إن لم يكن عُضالاً غير قابل للشفاء، وأكثر الأمراض أصبحت في هذا العصر، ولا سيما في الدول المتقدمة –قابلة للعلاج والشفاء، وأما المستعصي منها، ففي

طريق الإخضاع للعلاج، لأنه ((ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء))[١]، كما يقول الحديث الشريف ولكن ينبغي البحث عن الوسائل والأسباب، وعد التواكل واليأس والإهمال..

ومن ورث عادات سيئة ضارة، يستطيع أن يستبدل العادات حسنة نافعة، بالمرأة والمحاولة والتدرب والتدرب والاستمرار.. وبالعزيمة الصادقة والإرادة القوية..

ومن ورث الضخامة والسمنة، يستطيع تخفيفها بالحمية (الريجيم)، والتغذية المحسوبة المقننة، وبالرياضة والحركة والعمل الكثير المنتج..

ومن ورث النحافة والرقة، يستطيع كذلك اكتساب القوام المعتدل، والعود الحسن، بالغذاء الكافي المتوازن، والرياضة الخاصة المناسبة.. ومن ورث الحمق، أو الجهل، أو الجبن، أو الدناءة.. فعليه بتكلف أضدادها، وهي: الحلم والعلم والشجاعة والرفعة، فقد قيل إنما الحكم بالتحلم، والعلم بالتعلم، والشجاعة بالتشجع، والرفعة بالترفع...حتى تصبح هذه الصفات عادات راسخة، وصفات ثابتة في الشخصية الساعية نحو الكمال.

وعلى ذلك نستطيع أن نقيس الأمور بأمثالها وأشباهها، ونمضي على هذه الوتيرة.. وقد نص الله تعالى في كتابه العزيز: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[٢].

V.VI.VII أما علاج البطالة والجهل والأمية، والتدين الخاطئ، فقد سبق تناوله في بحث الطلاق..

الدعارة والعهر

La de'bauche et & le libertinage

وصف وفرز: في المعجم نجد: دَعَرَ ودَعرَ يَدْعَرُ دعارة: فَجَرَ، وتَدَعَّر: خَبُثَ، والدعارة: الخبث والفسق والفساد. وعَهَرَ، وعَهرَ يعْهَرُ عَهْراً وعهْراً وعهوراً وعهارة وعُهورة – المرأة: أتاها للغجور، العاهر: للمذكر والمؤنث: الزاني والزانية.

فالمعنى المشترك لهذه الألفاظ جميعاً هو الفجور والزنى والمنكر المتعلق بالجسد، واستحصال اللذة والمتعة بطرق غير مشروعة، تؤدي إلى فساد العلائق الاجتماعية، وفساد النسل والذرية، وانتشار الأمراض وانتقالها، وقتل معاني الكرامة والمروءة، والشرف والطهر.

فالمجتمعات والأديان جميعاً وعلى تطاول الأزمنة، واختلاف الأمكنة، انكرت واستقبحت الفجور والزنى واحترمت وقدّست العفة والطهر والصيانة، وعرفت مساوئ وعواقب الأول ومحاسن ومنافع الثاني.. وقيل الكثير الكثير في ذلك.

[١] تتمة "علمه من علمه، وجهله من جهله" البخاري ومسلم، انظر (قبس من نور محمد(ص) صـ٤٢٤

[٢] الرعد١١

قال تعالى: ((ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً)) و ((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة))[١].

وقال (صلى الله عليه وسلم): ((لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حي يشربها وهو مؤمن))[٢].

وقال لما سئل عن أعظم الذنب: ((من أعظم الذنب أن تزاني حليلة جارك))[٣].

وقال الشاعر:

أمطعمة الأيتام من كدّ فرجها   حرام فلا تزني ولا تتصدقي!

يروي أبو الفرج الأصفهاني، في كتابه: (الأغاني)، بعضاً من قصص الفسق والفجور، فمن ذلك أن جماعة من أهل حمص، استحسنوا غلاماً واستحلوه، فأخذوه معهم إلى بستان، فأكلوا وشربوا وأسكروه، فلما استحوذ عليه الشراب، فسقوا به جميعاً.

وقيل: الدعارة أقدم مهنة في التاريخ! ودور البغاء –مرخصة أو غير مرخصة– موجودة في كافة المجتمعات، وقلما خلا منها مجتمع من المجتمعات، خلال أزمنة التاريخ.

والقرآن الكريم يذكر ما يدل على أن بعض العرب –في الجاهلية– اتخذ من البغاء فيمن يملكه من الإماء، تجارة، كما في قوله تعالى: ((...ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم))[٤].

وفيه، أي: القرآن الكريم – كذلك– ما يدل على أن التسري أو الاستمتاع بالإماء أي: الجواري المملوكات، ملك اليمين، مباح، كما في قوله تعالى: ((...والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون..))[٥].

وقال تعالى، حاثاً على غض البصر، وحفظ الفرج: ((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها...)[٦].

وكان الإسلام يحض على الإحصان –الزواج– وعدم اتخاذ الخليلات، ويدعو النساء أن يكن –في علاقاتهن بالرجال– ((محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان))[٧]، أي عشاق، وللدعارة والعهر، في مجتمعاتنا، صور ومظاهر كثيرة، سنعرض فيما يلي بعضها:

دور البغاء، أو ما يسمى: (المحلات العمومية): وفيها يجد طالب اللذة، أو المتعة المحرمة، عادة عدداً من النساء العواهر، اللواتي احترفن الدعارة، أو آلت بهن الظروف القاهرة إليها، أو ساقهن إليها قدر

---

١ النور ٢
٢ متفق عليه
٣ مسلم
٤ النور ٣٢
٥ المؤمنون ٥-٧
٦ النور ٣٠-٣١
٧ النساء٢٥

أحمق غشوم، إلى غير ذلك مما يمكن أن يقال من العلل، وهن –عادة– من مختلف الأعمار، ولذلك تختلف الأسعار: وكبرياتهن يكن –عادة– قيمات وقوادات وخادمات.. للصغريات، أو لسائر البغيات، وتتقاضى الدولة، منهن، ضرائب مقابل إسكانهن وحراستهن، وتقديم بعض الخدمات الصحية وغيرها لهن..

وترد إلى دور البغاء، أو تُجلب إليها الزانيات المنبوذات من بيئتهن، أو الهاربات الخائفات، أو العاهرات اللاتئ يقبض عليهن، عدة مرات، في العهر والفساد –كما قيل– أو كما زعموا.

وفي سورية، أغلقت المباغي بالتدريج، في الخمسينيات، ولست أدري ماذا فُعل بالبغايا، وقد أحسنت الدولة –في نظري– حين اتخذت هذا القرار، لأن البغاء –وخاصة الرسمي– لا يقره دين، ولا يرضى به خلق كريم، ولا يتفق مع أية مبادئ ثورية أو اصلاحية..

فقبل الإلغاء، كان، في جانب من العاصمة دمشق، جناحان للبغاء رسميان، أحدهما للجنود والعامة، والآخر للضباط والخاصة، والفرق بينهما كبير واضح من حيث البناء والتجهيز بالمرافق، والفرش، والغانيات العاهرات أيضاً! وطبيعي، أيضاً، أن تكون الأسعار متفاوتة، وأن تكون الخدمات المقدمة إلى الزبائن مختلفة..

وفي حلب، كان هناك حي قديم خاص لهذه الغاية وبجانبه تقوم الحوانيت والدور والأسواق ومختلف الأنشطة التجارية، وفي بعض المحافظات السورية، كانت مجموعة من الدور، منعزلة عن وسط المدينة، أو جناح خاص منها، يجري فيه بيع الهوى، وعرض الأجساد الأنثوية للراغبين!

وفي لبنان، كانت تجارة الجنس أظهر وأقوى وأنشط ولها مظاهر وصور عدة، ويختلط أمرها بأنشطة الحياة المختلفة، كالفن والأدب والثقافة، والرياضة والسياحة..الخ "والمحل العمومي" في العاصمة بيروت، يمكن أن يعد أكبر أو من أكبر "المحلات العمومية" في العالم! وإن الكتب الجنسية والمجلات والصور والأفلام والوسائل الجنسية، التي كانت تعرض في بيروت خاصة، تضاهي مثيلاتها في عواصم الدول الغربية المشهورة، كباريس ونيويورك وغيرها.

وفي "بليدة" قرب الجزائر العاصمة، حي أو زقاق، فيه عدد من دور البغاء، يفتح ويغلق في أوقات محددة، وفي كل دار بضع نساء عاهرات، تشرف عليهن عجوز عمرها عمر الرذيلة –كما يقول نزار قباني في إحدى القصائد– تستقبل الزبائن، وتخدم البغايا..

وفي "مدريد" عاصمة إسبانيا، رأيت شارعاً فرعياً تقوم على جانبيه النوادي الليلية والنهارية، لتناول الشراب ورؤية برامج التعرية، وعرض مفاتن الجسد، والرقص المثير للغرائز.. والحانات والفنادق العامرة بالغانيات العاهرات، اللواتي يطفن، هنا وهناك على الأرصفة، بأبهى الحلل، وأبلغ الزينة، يصطدن الزبائن من السياح وغيرهم، ويدخلن بهم إلى تلك الفنادق، أو على دور خاصة وفي العاصمة الفرنسية "باريس"، تجد الحي المسمى "حي بيغال" حيث دور عرض الأفلام الجنسية، والملاهي المتصفة بالعري والمجون

والخلاعة، وحوانيت الجنس ((Sex Shops))، التي تباع فيها الوسائل الجنسية علناً، والأفلام والصور والمجلات والكتب والهياكل الجنسية المختلفة، مما يخطر ولا يخطر على البال!..

وحيث الغواني العواهر يجلسن على الأرصفة، في المساء خاصةً، شبه عاريات، متزينات متبرجات، مائلات مميلات! وكل واحدة بيدها مفتاح شقتها أو غرفتها، فإذا ما اصطاد أحد، تبعها إلى حيث تقيم، وقضى وطره منها، ويبدو أن دوريات الأمن.. لا تتعرض لهن –كما في إسبانيا– إلا إذا تجمهر الناس، أو حدث حادث، أو اشتكى شاك، وفيما عدا ذلك، يُغض عنهن الطرف! وشبه ذلك نشهده في العاصمة البرتغالية "لشبونة"، ولكن بنسبة أقل وأضيق.

أما في المغرب، فربما يختلف الأمر كثيراً، عما ذكرنا، فالجنس كالخبز اليومي، في كل مدينة وقرية، وناحية و(زنقة)، وإن كان التمركز له في مدن وقرى معينة، كالبيضاء وخنيفرة، ويوميّة، والريش، والحاجب واضحاً أكثر... لكنالبغاء الرسمي غير موجود.. ويبدو أن هذه الظاهرة قديمة في المغرب، منذ عهد الاستعمار الفرنسي وغيره، وأن استمرارها يدل على تغاضي الدولة، وتغاضي السكان أيضاً، لأسباب ومنافع اقتصادية واجتماعية..

ففي المدن، تخرج الفتيات والغانيات والعواهر، زرافات ووحداناً، يطفن ويتجولن، في الشوارع ولاساحات، وهناك تجري عمليات التصعيد والإغواء والإغراء، وفرص التعارف والتلاقي، والتصعيد يكون مباشرة، أو بواسطة السيارات.. وبعد التفاهم والمساومة، تأخذه إلى دار تعرفها، أو يأخذها إلى داره أو فندقه.. وقد يكونون جماعة من الجنسين، فيذهبون معاً إلى دار أحدهم، يقضون ليلتهم في اللهو والمجون و(التقصير) أ/ا في القرى وبعض المدن، مثل خنيفرة وبومية والريش.. فالشباب وغير الشباب، يأتون غليها من مواطن بعيدة غالباً، ليجدوا فيها البغايا الصغيرات الجميلات، اللواتي وردن إلى هذه الأماكن من السهول والجبال والوديان، والقيعان البعيدة الوعرة والمنقطعة، غالباً، طلباً لرؤية الحياة بمعناها الأوسع، وطلباً للمال والمتعة، والمعرفة والتجريب..

هناك الدور التي يدخلها العابرون، فيقضون أوطارهم ممن يرغبونها من الفتيات المختلفات الأعمار، والأشكال، وحتى الألوان.. والدور التي تجري فيها حفلات (التقصير)، حيث يجتمع فيها لفيف من الفتيات والشباب أو الرجال والنساء، على الطعام والشراب، والتفكه بالنقل والفاكهة، وسماع الموسيقا والغناء: إذ يقوم بالعزف رجل يعرف بالشيخ، على كمان أو غيره، بينما توقع البنات والشباب على المناضد أو الدفوف أو غيرها، ويغنون غناء خاصاً بتلك المناطق، بلهجة بربرية تسمى: (الشلحة)، وأثناء ذلك، يتناوبون على الرقص (الشطح) غالباً، ويضحكون ويمزحون، ويسمرون حتى ساعة متأخرة من الليل.. فإذا انقضت السهرة، أدى كل شاب مع فتاته التي سهرت معه، إلى غرفة في الدار نفسها، أو في دار أخرى، يقضي معها بقية الليل، وفي الصباح يتناولان فطوراً خفيفاً تقدمه الفتاة، ثم يؤدي إليها المتفق عليه، ويودعها، وينصرف وفي الليلة التالية تستقبل، وتنام مع غيره، وهكذا.

حتى الشيوخ المسنون، تتاح لهم فرص اللقاء جنسياً بصبايا في عمر الزهور –كما يقال– مقابل أجر زهيد معهود.. والحمامات –وما أكثرها هناك– كفيلة بغسل كل الأوساخ والأوضار، والذنوب والآثام –كما يزعم أكثر هؤلاء، حتى في رمضان فما يكاد ينقضي وقت الإفطار، أو وقت صلاة العشاء –على أحسن تقدير– حتى ينطلق كل جنس، يسعى وراء جنسه الآخر، ليقضي منه وطره، ويتناول ما يتاح له من الطيبات والأطايب، حتى إذا اقترب وقت الإمساك، دخل الحمام، فاغتسل، وخرج صائماً، وعلى الله متوكلاً!!..

وفي قرية تسمى (إيميلشيل)، حيث تغلب العادات والتقاليد القبلية المحلية، على كل ما سواها، يجتمع الفتيان والفتيات من تلك الناحية، في موسم أو مهرجان سنوي، وكل اثنين اجتمعا واتفقا –وهما يمرحان ويرقصان ويشاركان في مختلف أنشطة الموسم– يذهبان إلى شيخ القبيلة أو الفقيه، فيعقد لهما ويبارك زواجهما على الفور ويخرجان متزوجين! ولسوء الحظ فقد فاتني أن أشهد أحد هذه المواسم، وهي حقيقة واقعة وليست من الخيال!

وفي بعض المدن، يجد المرء أزقة في الأحياء القديمة، حافلة بالمومسات المحترفات وغير المحترفات، يقمن، في وضح النهار، على أبواب الدور، يغرين المارة من الرجال، ويدعونهم بالهمز واللمز، والتنهد والغنج..!

وقد رأيت، في بعض المدن –وهو قليل نادر– بعض الولدان المنحرفين الضالين، يخرجون مع الفتيات العاهرات، إلى الشارع، في السماء، يتصيدون مثلهن –من يفسق بهم من بقية قوم لوط! ويسمى هؤلاء، في المغرب: (الزوامل): مفردها (زامل)، وليس هذا مقصوراً على المغرب، بل قد يكون منتشراً في أكثر مدن العالم، فقد سمعت بمثله في أسبانيا وفرنسا، ووقفت على نموذج منه في دمشق، يُعتبر من أندر النوادر، وعلى رأسهم ذلك الفتى الملقب (زوزو)، ويعرفه الكثير، وهو مثقف رياضي، أنيق المظهر، عجيب المنطق، حلو اللسان.. يتصيد من يلوط به من السياح والغرباء.. وأظن أنه لا يتقاضى أجراً، لأنه –كما قيل– من أسرة غنية موسرة، وقد سمعته مرة، يتحدث إلى بعض الناس بالفرنسية طليقاً كالبلبل! مما يتعذر على مثله كثير من يدعي الثقافة والمعرفة.

ولعل من أعجب ما رأيت، وأغربه وأندره.. ذلك الرجل الدمشقي الذي كان يقود لزوجته وبناته! ويستقبل الراغبين من الغرباء –على الخصوص– ويسكر معهم، ثم يتركهم مع زوجته وبناته! ويستعمل داره –أحياناً– ماخوراً، إذ يستقبل فيها الفاجرين والفاجرات لقاء أجور معينة، ومنافع من مأكل ومشرب ومنكح..

ورجل آخر، رب أسرة مؤلفة من زوجة وأولاد ذكور وإناث، كان يؤوي –في داره– فتاة عاهرة –يقوّد عليها، مع ابنه الأكبر، ويتقاسمون وإياها العائدات! ويتبادلون المنافع!

وثالث، يشغّل امرأته في الدعارة، ويعيش من كد فرجها! وقد اشترى قطعة أرض وبني فيها داراً، وفرشها، من هذا الكسب الحرام والمجتنى الخبيث، ولا خجل ولا مروءة.

ولهذا وأمثالث، لا يعتبر مبالغاً، ولا سوداوياً متشائماً، من أدعى أن بعضاً من أخلاق الجاهلية الأولى ما زال مستمراً فينا، أو في بعضنا على الأقل، وأ، من بحث عن الشرور والأشرار، في هذا العصر، وجد فيضاً عارماً، وكمّاً كاثراً!

ربنا تب علينا، يا غافر الذنب وقابل التوب! قال تعالى: ((ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً))[١].

الأسباب

أكبر الظن أنه لا اختلاف في كثرة الأسباب المؤدية لهذه الظاهرة، من غريزية فطرية، إلى اجتماعية واقتصادية وتاريخية..الخ يختلط بعضها ببعض، ولعل من الخير، أن تنحصر هذه الأسباب في صنفين: أسباب داخلية أو ذاتية، وأخرى خارجية أو موضوعية.

٤-٥-٦- البطالة: وقد سبق الحديث عن هذا السبب، بما يكفي، عند بحث أسباب التسول وغيره، فليرجع اليد من أراد، في مكانه،

٤-٥-٦- الفقر والأزمات الطارئة: الواقع أن الفقر النسبي، الذي ينيخ بكلكله على السواد الأعظم من الشعب، ولا سيما في القرى والأرياف، والبوادي والجبال، والأزمات الطارئة التي تنزل بالسكان، من جراء الجفاف وقلة الأمطار، أو الأمراض والأوبئة التي تصيب الزروع أو المواشي، أو البرد الشديد، والرياح الصرصر العاتية، أو الحر والسموم.. من العوامل البارزة في خلق هذه الظاهرة وتنشيطها وتنميتها.. فالحاجة أو الفاقة مع عوامل أخرى، قد تدفع المرأة، أو الفتاة إلى السقوط في حمأة الرذيلة ولاتضحية بالطهر والعفاف، لقاء لقمة العيش، وسد الخلة، أو استجابة لسيل من الإغراءات والدوافع الأخرى.

٤-٥-٦- مخلفات ورواسب العهد الاستعماري: لقد سبق أن أشرنا إلى هذا العامل عند التصدي للحديث عن أسباب السكر والخدر، وقلنا إذ ذاك، إن المستعمرين قد أدركوا خطورة، وفقالية مثل هذه الأسلحة الفتاكة، فاستخدموها ضد الشعوب المستعمرة يفتح الميم فشجعوها –ولا سيما الشباب– على تعاطي الخمور والمخدرات، وممارسة ألوان من اللهو والمجون، والتسلية والتلهية، لفل هجمها وتثبيط عزائمها، وإضعاف إرادتها ونزوعها نحو التحرر والانطلاق، والتقدم والرقي، ولصرف عقلها، وكف بصرها عن وعي واقعها، والالتقاء والتكاتف والاتحاد، في جبهة واحدة، للجهاد والنضال ضد عدو مشترك..

ولقد كتبت الصحافة الكثير عن التركة المشؤومة، التي خلفها الاستعمار الأميركي في فيتنام ومن تلك التركة عدد رهيب من البغايا الفيتناميات، اللواتي نزع عنهن شرفهن وطهرهن الجسدي، خلال تلك الحرب

---

[١] فاطر ٤٥

الشيطانية الطويلة، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الشعوب والأمم المنكوبة، التي وقتع في براثن الاستعمار البغيض، فترة من الزمن، طالت أم قصرت..

وليس من السهل، على هذه الشعوب والأمم التي أخذت حريتها، وانتزعت استقلالها، أن تتخلص من عقابيل تلك التركة الملعونة في وقت وجيز، بل أرى أنه لا يمكن معالجة تلك الرواسب والمخلفات الاستعمارية، إلا بالتخطيط المحكم، والدراسة الشاملة والإرادة الواعية والمداومة على الدواء والعلاج.

إذاً، فقد رحل المستعمر، وترك وراءه، عدداً من المواخير، وبؤراً من الفساد، وطوائف من البغايا من الصعب تصور مداها وتقدير حجمها ونسبها..

إلا أنه يمكن أن نسجل أن بعضاً من هذه المواخير والبؤر قد اختفى، لحسن الحظ، وأن عدد العاهرات المومسات قد أخذ بالتضاؤل والتناقص، منذ فجر الاستقلال..

٤-٥-٦- الجهل والأمية، والتدين الخاطئ، وتغاضي الدولة أو تعاميها..

سبق الكلام على هذه الأسباب جميعاً، حين الحديث عن أسباب السكر والحذر..

٧ غلاء المعيشة، وارتفاع كلف الزواج: فغلاء المعيشة المستمر، وتصاعد المهور، ونفقات حفلات الزفاف، وكلف الحياة الزوجية، جعل فريقاً كبيراً من الشباب، يُعرض عن الزواج، في سن مبكرة -على الأقل- ويؤجله إلى أن يجمع ثروة كافية، ويستقر في عمل أو وظيفة مضمونة دائماً.. وأنى لأكثرهم هذا؟ والحال، على ما تعرف، في بلداننا النامية، من الاضطراب والحروب، والتزايد السكاني، والترجرج الاقتصادي، والاختلاف السياسي والإيديولوجي...الخ

مما أوقع كساداً في إنشاء الزواجية في العلاقات المشروعة ورواجاً في سوق العلاقات المحرمة، ومجالات الفاحشة، وسبيل الضلال والانحراف..

٨ التشرد: وقد سبق بحث هذه الظاهرة بتفصيل أوائل هذا الكتاب، فليرجع إليه من شاء، في مكانه.

الأسباب الذاتية:

١- الغريزة الجنسية:

فكل من الذكر والأنثى يولد، وفيه هذه الغريزة الجنسية، غريزة البقاء والاستمرار، عن طريق الاتصال الجنسي والتوالد.. والله سبحانه أشار في القرآن الكريم، إلى أنه تعالى خلق البشر جميعاً من نفس واحدة -آدم- وخلق منها زوجها -حواء- ليسكن إليها، وأعتقد أن هذا السكن، هو المودة والرحمة، والحب، المتولد عن الاتصال الجنسي والمعايشة.. وفي بعض الأحاديث القدسية- وهي الأحاديث التي أوحى الله بمعانيها، إلى الرسول دون ألفاظها -أما القرآن فموحى باللفظ والمعنى -يشار إلى أن الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم، ولهذا، فكل جنس من الجنسين، يسعى للالتحام بالجنس الآخر، لإزالة توتره، وتحقيق سكنه، وبالسكن تتحقق السعادة.. وفي سفر التكوين -الإصحاح الأول- من التوراة جاء ما

ترجمته: "فدعا آدم بأسماء جميع البهائم[١]وطيور السماء وجميع حيوانات البرّية، وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره، فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم، هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة، لأنها من امرئ أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً، وكانا كلاهما عريانين: آدم وامرأته وهما لا يخجلان".

هذا –بلا شك– تعليل للغريزة الجنسية التي تدفع كل جنس إلى الآخر.. ليتصل به، لأجل أن ينسل ويتكاثر.. ولعل أكثرنا، قد سمع بذلك التعليل الذي شاع عن أفلاطون –تلميذ أرسطو– حين ادعى أن الله خلق الإنسان –أول الأمر– برأسين وجسدين ملتحمين جسداً واحداً، ثم فصله جسدين ذكراً وأنثى.. وفرقهما.. ومنذ ذلك الحين أخذ كل نصف، يسعى إلى نصفه الآخر...الخ

نفهم، من ذلك، عدة أمور، منها: أن الغريزة الجنسية دافع فطري، قوي عنيف، وهو محترم ومشروع وضروري لاستمرار الخلقن وعمارة الأرض وتحقيق مشيئة الخالق.. ولكن الأديان جميعاً، والأعراف الاجتماعية، لم تطلق العنان لهذه الغريزة، حتى لا يشبه الإنسان الحيوان، لأن الله تعالى كرّمه، وسخر الحيوان، وكل شيء له، حتى أنه قد أسجد الملائكة له، ممثلاً بأبي البشر جميعاً آدم عليه السلام: ((إذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس))[٢].

ولذلك شُرع الزواج، وعزز وقدّر ورقع فوق الإباحية، والعلاقات المحرمة، في كل زمان ومكان..

وإذا لم تجد الغريزة الجنسية، سبيلاً إلى التصرف والنفاذ والتحقق، عن طريق الزواج، انفجرت واندفعت، بصاحبها، كالسيل، إلى المسالك المحرمة، والتصرفات المنحرفة.. وقد تدفع بالإنسان –أحياناً– إلى الاعتزال والتوحد والرهبانية، أو إلى التسامي والأرتفاع والإبداع في عالم الأدب أو الفن أو العلم..

وليس من شك في أن كثيراً من حالات السقوط الجسدي، في أحضان الرذيلة سببه الكبت الجنسي، والانفجار القوي، في لحظات الضعف الإنساني، وانهزام الرادع الأخلاقي أمامه.. والجسد الذي سقط، أول مرة، يسهل عليه السقوط بعدها، ويصعب منعه وتحصينه، اللهم، إلا بالزواج، فمثله كمثل الآنية الفخارية أو الزجاجية، إذا انكسرت، يصعب رأب تصدعها، ولحم كسورها، ولا يعيدها سيرتها الأولى، إلا صهرها من جديد، وصبها في قالبها الأصلي، وأنى للجسد ذلك!

٢- الفضول الجنسي وحب الاستطلاع والتجريب: على أن الفضول الجنسي، وحب الاستطلاع والتجربة، عند أكثر الناس، إن لم نقل كلهم، من العوامل التي لا يستهان بها، في ولادة هذه الظاهرة واستمرارها.. فكل امرئ، ذكراً كان أم أنثى، يريد أن يعرف هذا الدافع الجنسي عنده، وعند الآخر، بمزيد من الممارسة والتجريب وكلما قطع شوطاً، زين له أن وراءه، أشواطاً أكثر إثارة وتشويقاً.. يريد أن يجرب أكثر فأكثر، أو يقوم بأكبر عدد من التجارب، لذلك قيل: إن كلاً من

---

[١] انظر كتاب (دروس اللغة العبرية) صـ٤٣٩

[٢] البقرة ٣٤

الزوجين يشعر بالغبن إزاء الخر، ويظن أنه حرمه متعاً شتى! ويميل بعض الأزواج إلى الخيانة تعويضاً لما حرمه من قبل شريكه!

ومتى استحوذت على الإنسان شهوته، وضعف الورادع الأخلاقية عنده، هان عليه كل شيء، في سبيل إشباعها.. وربما داس على القيم والمبادئ وجميع المثل العليا في سبيلها، وهيهات، هيهات أن يشبعها! فلو بقيت –في هذا العالم– امرأة واحدة، لم يصل إليها، لسعى أو طمع في الوصول إليها، وكذلك تفعل المرأة التي من هذا القبيل، ولا أشك مطلقاً، في أن لهذا الفضول الجنسي، وحب الاستطلاع والتجريب ضحايا من الجنسين، هم الآن، يتخبطون في مستنقع العهر والفحش والفساد.. وليس لهم من منقذ غير الزواج الذي شرعه الخالق (سبحانه) والرضا والقناعة به..

٣- جو العصر النفسي: فالجو العصر –بما يتسم به من سرعة، وتسابق حضاري، ومن انتقال وشيوع الأفكار والآراء، والمذاهب والنظريات، والعادات والبدع (الموضات) بواسطة الوسائل الحضارية المختلفة، من كتب ومجلات ورسائل، وأشرطة تسجيل، وأفلام وبرامج إذاعية وتلفزيونية.. تصل إلى كل مكان في هذا العالم.. ومن تقدم وسائل المواصلات، والواصل بين الأمم والشعوب، من سريان رياح الحرية والتحرر والانطلاق في كل مكان، ومن وفرة الوسائل الترفيهية والكمالية، ومن تقدم العلم والطب والاختراع و(التكنولوجيا).. أشاع جواً نفسياً معيناً بالنسبة للجنسين، وفرض، وروّج أنماطاً من الشعور والسلوك كالاتباع والتقليد والمحاكاة، لما ولمن تفرزه الحضارات المختلفة، ولا سيما الحضارة الغربية، والتسابق والتنافس المحموم في اقتناء كل جديد، واجتناء الملذات، وتحقيق الرغبات، واقتناص الشهوات.. بكل الوسائل، وبأسرع السبل، والغيرة والحسد، والبغي والعدوان...الخ

٤- فكثير من الفتيات والفتيان، دفعهم التقليد الأعمى، وحب المحاكاة، بلا فهم، ولا تعقل أو حملتهم شهوة الإثراء العاجل، أو الاستمتاع السريع.. إلى السقوط الجسدي في مستنقعات الرذيلة والفساد، والعهر والدعارة..

٥- ولقد بلغ الشعور بالغيرة والمنافسة في بعض النساء، في العالم، حد تقليد ومحاكاة الرجال في كل شيء، فقد قرأت، في إحدى المجلات، أن بعضاً من النساء والفتيات، في المدن الكبرى، والعواصم الغربية، يقمن بعمليات خطف، لمن يستحوذ على إعجابهن من الرجال، ويجبرن المخطوف على ممارسة الجنس معهن، وأن بعضهن يعمدن –كما يفعل الرجال– إلى استدراج الرجال، واصطيادهم بكل الوسائل الإغرائية.. وأن عدداً من النساء خرجن في مظاهرة صاخبة، في إحدى المدن الأوربية يطالبن بفتح مواخير من الرجال لهن، أسوة بالرجال! وأن طائفة من البغايا، تظاهرن، ذات يوم، مطالبات بتعويضات ومعاشات تقاعدية...الخ

وتبقى التجارة بالجنس وتوابعه، من المسكرات والمخدرات، ووسائل اللهو والعبث والمجون، والتسلية والتلهية، كالميسر والقمار وغيره.. من أخطر أسباب هذه الظاهرة.. ولم نفرد لهذا السبب باباً على حدة مع

خطورته وقوته.. نظراً لاختلاطه بالأسباب الأخرى، وملابسته لروح العصر، وجوّه، ومختلف مظاهره وأنشطته، وكونه إحدى الجراثيم التي تتعايش مع غيرها، في أجواء الحرية والديمقراطية، في المجتمعات الحديثة المتحضرة، أو السائرة نحو الحداثة والتحضر، بالمفهوم الغربي..

النتائج والعواقب:

إن من يستقصي ويتتبع نتائج هذه الظاهرة، سيقف على كثير من عقابيلها، وعواقبها الوخيمة، التي قد لا تخطر على بال، وسنحاول –فيما يلي– الإلمام بما يبدو لنا الأهم بين تلك العواقب والنتائج..

a) شيوع الأمراض الجنسية وانتقالها بالعدوى:

فالاتصال الجنسي بين مريض مرضاً معدياً وامرأة سليمة يؤدي –لا محالة– إلى إصابة تلك المرأة بذلك المرض، فإذا لم تتداوَ على الفور وتمتنع عن الاتصال الجنسي بآخرين، حتى تصل إلى الشفاء التام من المرض، فإنها ستصبح حتماً بؤرة، لتصدير هذا المرض ونشره في طائفة من الرجال والنساء الأصحاء، وهؤلاء سيكونون وسائط لنقله وتصديره إلى آخرين وأخريات، من أبناء المجتمع.. وهكذا دواليك!

مما يصعب معه حصر المرض ومنع انتشاره، واجتثاث منبعه، وفي ذلك ما فيه من إفساد الصحة العامة للمجتمع، وجناية على الأبرياء.. إذ قد تضاجع المرأة الموبوءة رجلها العفيف السليم النظيف، فتنقل إليه المرض، أو يجامع الرجل الداعر المريض امرأته العفيفة الشريفة الصحيحة من كل مرض، فيؤدي بها إلى المرض والاعتلال.. وقد ينتقل المرض إلى أفراد الأسرة الآخرين، بطريقة الملامسة والمعايشة، بمختلف صورها وأشكالها..

والأمراض التي تذكر، بهذا الصدد، كثيرة متفاوتة الخطورة والأعراض والنتائج، منها ما هو تناسلي، قد يؤدي بالمريض أو المريضة إلى العقم، أو البرود الجنسي أو العنة.. ومنها ما هو جلدي، يسبب الدمامل والأورام أو البثور والقشور، أو الحكة والهراش.. ومنها ما هو عام بالجسم كله، يصيب الجسم بالضعف والهزال، والشحوب والإصفرار..

من هذه الأمراض جميعاً، نذكر مثلاً: الزهري، والسفلس، والسيلان (التعقيبة)، والجدري، والبرص، والجذام، واليرقان، والسل، والتقمل...الخ

b) ولادة اللقطاء، والجناية على الأطفال الأبرياء:

مما لا شك فيه، ان ظاهرة الأطفال اللقطاء، في المجتمعات، ناجمة عن العهر والدعارة والفساد.. فبالرغم من توفر وسائل منع الحمل المختلفة، واتخاذ الحيطة والحذر، فق تحمل المرأة من الاتصالات الجنسية غير المشروعة، وعندها تجد المرأة نفسها مضطرة: إما إلى إجراء عملية إجهاض، لطرح الجنين، وفي ذلك ما فيه من الخوف والألم، والتحرج، والشعور بالذنب والأثم.. وإما إلى الصبر والكتمان والاختفاء.. حتى تضع حملها، وترمي به في إحدى الزوايا، أو حتى الدور، أو المستشفيات.. ومن ذلك ينشأ قطاع من الأطفال اللقطاء الأبرياء، يربون هنا وهناك في المدارس والجمعيات الخيرية، والمياتم

والملاجئ، ويكونون عرضة للإهمال والحرمان، والتشرد والعذاب، والاضطرابات والعقد النفسية وقد يتعرضون للإيذاء والازدراء، والهمز واللمز، من قبل أبناء المجتمع، مع أنه لا ذنب لهم، ولا جناية، بل الذنب والجناية كلها تقع على الاتصال الجنسي غير المشروع، وعلى من مارسه واستبدله بالزواج الحلال الطيب، المحمود العواقب ولقد أتيح لي أن أرى، في المغرب، عدداً من اللقطاء واللقيطات، بعضهم في الخيريات والمياتم، يربون، ويُعلمون ويدرّبون على بعض المهن، على نفقة الدولة، أو تبرعات بعض المحسنين، وبعضهم في المجتمع ما بين عامل وأجير ومتشرد وضائع، ومتسول ومنحرف..

ومن عجيب ما أذكره، في هذا المجال، طالب كان من طلابي، في أحد مراكز تكوين المعلمين بالمغرب، فكنت أجده دائماً، مجداً مجتهداً نشيطاً، وأراه سوياً كغيره من الطلاب خلافاً لما يتوقع المرء أحياناً.. والعجيب في الأمر، أنه كان يصرّح أمامي، وعلى مسمع من الطلاب –في غير مامرة– أنه لقيط، وأنه رُبي في الملجأ الخيري كذا، وهو لا يجد، في ذلك، غضاضة، ولا حرجاً، حتى لكأنه يفتخر! ولعله ينفس شيئاً مما يحمله من ذلك الشعور الأليم، فيجد الراحة في البوح والتصريح، ويحني العطف والحنان منالآخرين، أو يتشفى بذكر الواقع والعيب، ويتسلى بذكر الهم، والبوح بالسر..

وعلى ذكر السر، فإن الجاحظ . في إحدى رسائله، وسياحاته الفكرية . يذكر أن حمل السر وكتمانه، من أشق وأصعب الأشياء على المرء، فهو يظل ينوء به، ويترنح تحته، حتى يبوح به إلى غيره، فيرتاح، ويذكر الجاحظ أن امرأ حُمّل سراً، فتعب من حمله، وثقل عليه كتمانه، كما أنكر واستعظم أن يبوح به لأحد، ولأنه أمانة في عنقه.. فذهب إلى الصحراء، وحفر حفرة ثم أدلى رأسه فيها، وأذاع ذلك السر في الحفرة! فشعر الخفة والارتياح! وفي أحسن الظروف، وأطيب الحالات، أن ينشأ اللقيط، ويربى عند بعض الأهل والأقارب، أو في مؤسسات حكومية لهذه الغاية . كما في بريطانيا حيث تكثر الأمهات بلا أزواج، حسب ما ذكرته بعض الصحف . إذ سيجدون قسطاً لا بأس به من العناية والرعاية والاهتمام... يعوضهم . شيئاً ما . عن عطف الأب وحنان الأم، ودفء الأسرة..

C . حرمان عدد من النساء والرجال، من نعمة الأمومة والأبوة ومشاعر السكن والرحمة والاستقرار:

إن التوجه نحو العهر والدعارة والفساد، بدل الزواج، الذي يعني الاتصال الجنسي المشروع، المأمون العواقب، ويعني بناء العش الزوجي المطمئن وإنجاب البنين والبنات: زينة الحياة الدنيا، ويعني الراحة الاستقرار، والسكن النفسي، ومشاعر المودة والرحمة بين أفراد الأسرة و أقول هنا: التوجه الخطير يقود . بلا ريب . إلى حرمان طائفة من رجال المجتمع ونسائه، من نعمة الأبوة والأمومة، ذلك الشعور النبي الذي يحرص عليه كل حي، ومن الأمان والاطمئنان، والرحمة والمودة والحنان.. ومن تلك الزينة ومتعتها وسعادتها، ألا وهي نعمة الأولاد، قال تعالى:"المال والبنون زينة الحياة الدنيا"[1] قرن المال إلى البنين، في توفير المتعة، وتحصيل السعادة، فلا متعة ولا سعادة بواحد دون الآخر.

---

[1] ـ الكهف ٤٦.

وليس الهدف هو المتعة والسعادة فحسب، ولكن تحقيق الذات، والاستمرار، إذ كل حي وخاصة الإنسان يتوق إلى تحقيق ذاته واستمراريته، عن طريق هذين العنصرين.. حتى الأنبياء (عليهم السلام) كانوا يحرصون على هذه الزينة: المال والبنون، لتأكيد ذواتهم، واستمراريتهم، في هذه الحياة الدنيا.

ويبدو واضحاً، أن هذين العنصرين، ليسا على قدم التساوي، رغم أهميتهما، وضرورتهما للحياة، فإن العنصر الثاني (البنين) أرجح وأخطر، في حياة الإنسان إذ يتطلع دائماً على من يخلفه ويرثه، ويعينه ويسنده، حين يصل إلى الضعف والشيخوخة وأرذل العمر، ثم حين يؤول إلى التلاشي والزوال جسداً، يتطلع إلى من يحقق آماله العريضة، ومشاريعه البعيدة، بعد وفاته.. وبعبارة موجزة يولد الإنسان وفيه ميل إلى الخلود، ولا يستطيع أن يحقق هذا الميل إلا بالنسل، أي إنجاب الأولاد، ولما كان الإنسان محباً للجمال، فإنه يحرص على النسل فيه . كما فهمت من بعض أقوال أفلاطون، في شهر آراء أرسطو . ولما كان النسل في الجمال، يمكن أن يتحقق بالإبداع والخلق الفني، فقد مال بعض الناس إليهما، لينسلوا فيهما، ويحققوا لأنفسهم الخلود المنشود.

وأتعس الناس حظاً، وأكثرهم حرماناً وشقاء وبؤساً . في نظري . أولئك الذين لا ينسلوا أولاداً، ولا أفكاراً متميزة، ولا روائع ولا بدائع، أي لم يخلفوا ما يخلدهم ويجعل لهم لسان صدق، وجمال ذكر في الناس.. ولقد رأيت، من نتاج العهر والدعارة والفساد، عجائز وشيوخاً، دب في أجسادهم الوهن والضعف والفساد، واستحوذ عليهم، المرض والخرف والعجز، وحرموا من الأمومة والأبوة، ودفء الأولاد والاسرة.. ولم يلدوا ولم يبدعوا شيئاً.. ولم يخلفوا فناً ولا فكراً.. فهم . الآن . يشعرون بالخيبة والمرارة، وبالبؤس والعذاب والحرمان ويتألمون لوحدتهم وعزلتهم ووحشتهم، ويأسفون على ما فرطوا، وضيعوا في حياتهم..

وهم كذلك أجسام بلا أرواح، كأنهم أشباح، وأمثلة للتعاسة والشقاء والضياع.. وكم سمعت أنين بعض الساقطات، وشكواهن وتندمهن، لما وصل إليه حالهن من الحرمان: حرمان الأمومة والأسرة والبيت والزوج.. وتخوفهن الشديد، من أن يقضين حياتهن هكذا، في العهر والدعارة والفساد، ثم ينقلبن . مثل غيرهن . قوادات رخيصات منبوذات.. يصرفن أعمارهن في أحضان الرذيلة، ومستنقع الفاحشة والقباحة.. وساءت سبيلاً وبئست مستقراً ومصيراً!

لقد صرحت إحداهن لصديق لي مرة: إنها تتمنى أن تتزوج ولو كلباً! يسترها، ويضمها إلى صدره وبيته، ويمنحها الأمومة، ويدفع عنها ذلك المصير المشؤوم.

ويظهر جلياً للمتأمل، أن نتائج الزنا والعهر والفساد، أشد وطأة ووبالاً على المرأة والفتاة، منها على الرجل والفتى، لأن هذين الأخيرين، إذا ما انغمسنا في حياة العهر والدعارة والفساد، فإنهما يستطيعان الخروج منها والتوبة، ثم العودة إلى الحياة الطبيعية، بالزواج والاستقامة والتقوى.. والمجتمع . ولاسيما في مفاهيمنا وتقاليدنا . مستعد للصفح والمسامحة، والغفران، والقبول وكأن شيئاً لم يكن! أما المرأة والفتاة، فإن المجتمع قلما يفعل ذلك بشأنهما، لأن المرأة والفتاة حرم، له صفة القداسة، وقداسته نابعة من صفة الطهر والعفة، فإذا زالت هذه الصفة ذهب كل شيء، بنظر هذه المجتمعات، وبالتالي: يصعب، وقد يستحيل

رجوع المرأة أو الفتاة إلى الحياة الطبيعية، بعد قضيها في الحاية الماجنة الفاسدة، وانغماسها في أجواء الدعارة والزنا، ومن هنا تنشأ المأساة الحتمية للمرأة والفتاة، والمصير المشؤوم لهما..

وينبغي ألا تتخدع الفتاة في هذا العصر، ببعض المظاهر التقدمية، والقشور المدنية، فتظن أن الفتى يجيز لها ما يجيز لنفسه، كلا! وإن بدا كذلك، فهو ما يزال يحتفظ بقيم الآباء والأجداد، في قرارة نفسه، وفي عظمه ودمه وروحه، وكل الرجال والفتيان . وحتى الفاجرون العاهرون منهم . عندما يريدون الزواج، يُقبلون على المرأة الطاهرة العفيفة، وينفرون من الساقطة البغية، لأن الطهر والعفة هما الأصل . حتى بنظر الرجل الفاسق العاهر . وما سواها خروج عن الأصل، وشذوذ عن القاعدة.

D . تزيين الفاحشة والرذيلة ونشرها..

لاشك أن هذه الظاهرة الاجتماعية المقيتة في ازدياد واتساع وتفاقم، ذلك أن فريقاً كبيراً من الشباب والشابات . في هذا العصر خاصة . قد أعرضا عن الزواج ومسؤولياته وتكاليفه، واستبدلوا به، تلك العلاقات الجنسية المحرمة